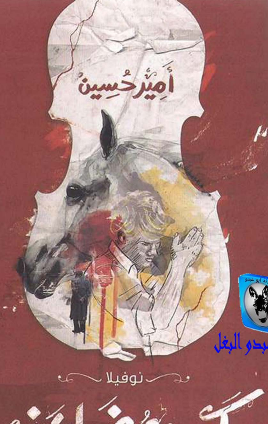


نوفيلا

كسر مضاعف

دار الراية للنشر والتوزيع

كسر مضاعف

للمؤلف

أمير حسين

عدد الصفحات : 152 صفحة

عدد الألوان : 1 لون

مراجعة لغوية : قسم المراجعة بالدار

تصميمات : القسم الفني بالدار

تصميم الغلاف : أحمد فرج



توزيع





رقم الإيداع : 2016/2747

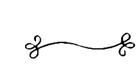
الترقيم الدولي : 978-977-426-188-6

12 شارع سوريا - المهندسين - الجيزة - جمهورية مصر العربية

تليفون :

002 02 33451851 - 33026637 - 33446727

E-mail: rayaloj@hotmail.com



إلى الحقيــقة

وإلى الحلــم







على بعد خطوة قد لا نصل ،

وبعد أيِّ رحيل يمكن أن نبقى.

(على بعد خطوة)

كلنا يُولَد مرتين ، ربما لا نذكر لحظة المخاض الأولى ، لكننا نعيش الثانية بملء أرواحنا ، ننسلخ من برزخها حينما نتلقى صدمة العمر، فنجد أنفسنا نشهق بين عاصفة قيامتها لنُبعث من جديد، ربما في جسد آخر تسكنه روح أخرى، لكننا لا نعود أبداً كما كُنّا، أتذكر يوم تُوفِّيَ صديقي "شريف" في حادث سيارة وكيف كانت لحظة فارقة في حياة "أيمن" أخيه، فوجئنا به بعدها قد صار يغض طرفه عن الفتيات، بعدما كنّا نراه كل يوم برفقة فتاة مختلفة ، أكانت تلك هي اللحظة المقصودة؟

- الأعمار بيد الله يا نبيل يا بني .

- فاضل لي قد ايه؟

- تقريباً شهرين.

يصارحني الدكتور "عبد اللطيف" وأنا أجلس أمامه في غرفة الفحص المعتمة، غيرَ مصدق لما يقول، أي شهرين؟!

أحاول أن أعارضه فيتحاشى النظر إلى وجهي، متصنّعاً تدوين شيء ما في تقريري الطبيّ. ملامحه المضطربة وارتباك القلم

بين أصابعه يشـيان بأنه لا يجد حتـى ما يكتبه. هذه بالفعل لحظتي، ليسـت فرصة تغيير، إنها موعد تنفيذ. منذ أسبوعين فقط ، لم أكن أتصور أن شـمس الحياة قد بدأت تستدير، وأن ليلها قادم ، بكل ما فيه من وحشة وخوف وضياع.

مسـاعِدَتُه الشـابّة الدكتورة "ريماس" تقف من وراءه ، في بقعة مظلمة بين ضوئين ، ضـوء مصباح المكتب وضوء لوحة الأشـعة ، عاقدةً ساعديها ومنكسةً رأسـها، فيما دمعة تتلألأ من خلف عدسـات نظارتها. لماذا لا نتعامـل مع الأمر بذات البساطة والجفاء؟ أظنها لازالت تملك بعضاً من الإنسانية التي تمـوت فينا مع الاعتياد، كل ما نعتـاده لا نراه ، يمحوه الزمن ببطءٍ ماكر وأصابعَ خبيرة.

آه ... الزمن .

- في حالات كتير التزمت بالعلاج واتحسنت الحمد لله.

تُواسـيني "ريمـاس" في نبرة حنونة ، تمدُ لي بهـا أوتارًا من الأمل ، لكنيّ لا أرى سـوى فتائل سابحة في الوهم، التعلق بها لا يمنحني إلا مزيداً من السقوط ، لا شيء يمكن أن يفيد الآن، ولا شيء يُرجَـى ، القـدر أصدر حكمه وعلّقني على مشـانق الانتظار.

وريقات رزنامة التقويم المُعلقة خلف ظهرها تَفِرُ عائدةً بي

إلى اليوم الذي قرأ فيه أبي قائمة درجاتي في الشهادة الابتدائية، ردُّه كان قاسـيًا كالمعتاد ، صفعـة على وجهي المكتظ زلزلت جسـدي الكروي السمين.

- هتعيش وتموت بليد وفاشل.

أهـرب بخطوات ثقيلة وجسـد يتهزهـز لأرتمي في حضن أمي ، تستقبلني بذراعين متلهفين للقيا ، وقلب يترنم أنشودة الحنـان ، تتلمَّـس موضع أصابع أبي على خـدي وتربت على ظهري ، تربيتتها تمنحني الأمان المنشود.

- بلاش تبقى قاسي عليه كده يا مصطفى ده ابننا الوحيد.

- ده غبي.

يشـتمني وهو يُطفِئ سيجارته في المرْمدة ، بينما أطفئ أنا حُرقتي في حضن أمي ، الانطفاء في حضنها لم يكُنْ مجرَّد بلسم يبرد لوعة إحسـاسي، بل باباً أنفُذ منه إلى مروج خُضْر، أجري فيها خلف ذيل مُهر جميل.

تفلـت مني دمعة تظنهـا "رماس" طليعة لأنـواء الوداع فتحول وجهها بعيداً، لا تعرف أنها مجرد دمعة قديمة، أختزنها منذ زمن بعيد، دموع الرحيل لم يحِن موعدها بعد يا دكتورة، فلازال أمامي ستون فرصة لأبكي كما يجب أن يكون.

الفجوات الداكنة في أشــعة مُخي المعروضــة على اللوحة المضينة تضعني أمام فوهة قبر أمي ، أشاهدهم وهم يلقمون لفافتهــا البيضــاء إلى حلق الظــلام، وأشــاهد أبي يبكي بينهم ويصرخ:

- أنا هدفنها هنا، عايزها تفضل قريبة مني.

لا أفهم ما يحدث! لكنني أتصورها شرنقة ستخرج منها أمي فراشــة بيضاء لتلفني بحرير حنانهــا ، أداوم على الجلوس إلى جوار شاهدها، أراقب الشمس وهي تهبط من السماء، فتدور حولهــا أوراق أقحواناتي التي نبتت هناك، ربما تأتيها فراشــة أمي لترشــف منها رحيق الحياة، لكــن الأقحوانة لم تكن تمنح شمسها إلا للدبابير، الدبور الأحمر الكبير كان لا يتركها إلا بعد أن يمتص النهار.

الليــل في حياتي لا يلد إلا ليلاً ، وفجوات مخي تزداد دكانة، الدكتــور "عبد اللطيــف" يحوم بالقلم المــضيء حول حدود الورم الواضح بالأشــعة، يرســم لرمياس دوامة كبيرة ومخيفة. ضيــاع أغــور في ظلمته لســنوات ، أتلقى خلالهــا مزيداً من الفشــل، مزيداً مــن الصفعات ، لكن لا حضــن هناك ، فقط علامات لأصابع خمســة ، تُحصي لي عدد مرات فشــلي الكبير، فشــلي في أن أصبح فارسًا أو ســباحًا أو راميًا، فشلي في دخول

الجامعة، وفشـلي في أن أنال قلب أي فتـاة، ربما لم أعد صبياً بدينًا كما كنت، بل شـاباً سـويّ الهيئة منسجمَ الملامح، لكنّي بقيت ممتلئاً ومملًا، والفتيات قطعًا لا يُحببن أمثالي ، لم يشفع لي شـعري الأشـقر ولا عيناي الخضراوان في أن ألفت نظر أي منهن، نظـراتي الحادّة والنمش المنتـشر في جلدي جعلا مني دوماً ذلك الفتى الغريب.

لا تتوقف غرابتي عند ملامحي ، بل تتعداها لشـخصيتي، أتحول إلى إنسان صموت منعزل ، يستطيب الانخراط في عالم السـكون ، خوفاً مـن أي شيء وكل شيء ، كـما يظل الوقت كالنوم ، لا قيمة له في حياتي ، فلا معنى للأشـياء التي تحتضر، والوقت يموت كل لحظة.

سيف العقرب الأسود يقطع رأس السـاعة الرابعة ، قبل أن يواصل رحلته في حصد مـراسي الميناء الأبيض، تغيب ملامحه المسـتديرة بعيداً، فتتقدم قسَـمَات الدكتور "عبد اللطيف" والدكتـورة "ريمـاس" ، لكنها سرعـان ما تـذوب في قطرتين مُعلقتين على حافة أهدابي .

يبدو أنني أبكي رغماً عني .

- الـدوا ده هيخفف وجع الصداع لحد ما نبدأ جلسـات العلاج.

يقولهـا الدكتور "عبـد اللطيف" ماداً يـده لي بوصفة بها عقـارٍ مّا. أكاد لا أراه من خلف دموعي ، لا أرى سـوى بقعة حبر سائلة ، تختم ربما شهادة وفاتي . أي عقار هذا يا دكتور؟! هل عقارك سيمنحني الحياة؟

ألتقطها فادسُّها في جيبي، وأودعهما بصوت مخنوق. أخرج إلى نهـار رماديّ كئيب، سـماؤه متورمة بالغيوم ، وشـوارعه مغسـولة بالمطر ، سـيارتي الهونـدا الحمـراء المصفوفة أمام العيـادة تتباين في المشـهد مثل بقعة دم قانية على جسـد ميت. أدخلها لأمسـح دموعي قبل أن تسـتحيل سـيلاً هادراً أعجز عن إيقافه.

آه ، الصداع يزداد جشعاً .

أدير مفتاح السيارة فيهدر المُحرك ويتوهّج وضع الاستعداد لتشغيل السي دي، موسيقى Danse Macabre تندفع كراقصة باليه متحمّسـة للعرض ، أثيرها ينسـاب إلى وجداني ذائباً مع صوت المطر في مَزيجٍ مأسـاويٍّ حزين، أحرك ذراع المسَّاحات فتتمايـل كأنها تشـاركنا كورال الموت ، لكـن المَطر لا يُمحى، المطر بـكاء والبكاء لا يموت ، تتشرّبـهُ أرواحُنا مثلما تتشرّب الذكريات الأليمة.

لماذا أبـكي الآن ؟ أليس هذا هو الموت الذي طالما تمنَّيتُه؟!

الثوب الأسود الذي أنتظره لأنه سيُداري فشلي ويستر عيوبي؟! ما الذي غيّر قناعاتي عنه إذن؟! ألم تزل الحياة كما هي ، بشعة للغاية ، قاسية للغاية ، وحقيرة أيضاً للغاية؟! أم هو إحساسي بالقهر لأنني أغادرها رغمًا عني!؟

تتعاظم إحدى القطرات التي تضرب زجاج السيارة لتحتويني وأنا أصارع الموت تحت الماء ، دفعني أبي على نحو مفاجئ لأسقط بحوض السباحة ، أحسست أنني غارق لا محالة ، لكنْ الماء ، حملني إلى السطح سريعاً لأشهق حلاوة الروح، تتجلى لي الأصوات المكتومة بالأعلى ، فيُوجعني أن أسمع ضحكات أقراني الساخرة مني تتعالى ، بينما أبي يقول وهو ينتشلني:

- لازم تتجرأ والمواجهة هي اللي هتعلمك.

تُجفِّف أمي صدري المكتظ وتضمني إليها ، أنزوي لأفرغ الماء الذي ابتلعته من معدتي ، وأفرغ معه الكثير من بقايا حبي لأبي.

لماذا يكرهني ويحتقرني؟

أحضان من زجاج تفرض عزلتي على ضجيج الشارع ، وخيوط المطر المنزلقة على زجاج السيارة الأماميّ تشدُّ من نفسها أوتاراً على الكمان النائمة فوق كتفي ، الكمان دائماً

تنـام عليها ، منذ لقائي الأول بها في معهد الموسـيقى العربية وهي جزء مني ، أعشـقها لأنها تحـترم وحدتي وتفهم حزني ، كـما أنْ رنيم صوتها يذكرني بنبض أمـي ، أحياناً أمرِّر القوس عـلى الأوتار فتنفتح أمامي نافذة مبهرة ، أرى أمي من خلفها رافلة في ثوب منير تمد لي ذراعيها، بينما شعرها الناعم يتطاير، وشفتاها اللامعتان تبتسمان:

- وحشتني يا نبيل.

يحنو صوتها الناعم على فؤادي فأردُ بلهفة:

- انت أكتر يا أمي.

- نفسي أشوفك.

- انا هنا قدامك.

أواصل العزف بحماس آملاً أن نقترب أكثرَ ، لكن الموسيقى تستحيل صاخبةً حينما تعاركها موجات سُبَاب يوجهها أبي إلى شاطئ كرامتي:

- غبي ومتخلف.

تصرخ الأوتار تحت نَصْل القوس حتى تنقطع وتسيل تحت أجفـاني ، أعتصرها فتفيض من مقلتي إلى خدي ، المَسَـاحات

تكنس المطر يميناً ويساراً كأنها تمسح دموعي، والمشهد يتجلى كاملاً في لحظة كاشفة . أفاجأ فيها باندفاعي الحادّ نحو الصدّام الخلفيّ لشاحنة كبيرة . المسافة بيني وبينها أبعد من دموعي، لكنها أقصر من عمري، لافتتها السوداء تعترض بصري :

"احيني النهار ده وموتني بكرة"!

يلطمنـي المعنـى للحظة قبل أن أدعـس المكابح في ذعر، تنزلق السـيارة على الأرض المعجونة دون أي سـيطرة مني ، أصطدم وأتزلزل ، تقتلعنـي الصدمة لأخترق الزجاج الأماميّ، عـشرات من القطع الزجاجية ترشـق جسـدي، يصعقني ألم حارق ، وأغرق في الأسود العميق.

موسيقى Danse Macabre تعزف في الفراغ .

قطع من النور تتمدّد وتتقلـص، وجوه باهتة جزعة تطل من معاطف بيضاء مخضبة ، وجسـدي مجرور فوق شيء ما، وهج مبهـر يغمرني ، صوت نبضي مكتـوم كمضخة تختنق ، متسارع كأنفاس تلهث ، ظلام سحيق ، روائح لاذعة ، صحوات، غفوات ، رنين ، صداع ، صمت ، صفير ، موت.

أصوات غامضة تتجلى.

- الحالة مستقرة.

أفتح عينيّ على مهل لأستبين صاحب الصوت ، بضع ثوانٍ تمطط فيها الملامح المتماهية بين الأبيض والرمادي قبل أن تنفصل ، أبصرُ بعدها قدمي ملفوفة في جبيرة معلقة ، وأجد الدكتور "عبد اللطيف" والدكتورة "ريماس" ومعهم طبيب آخر ، يتناقشون عند الطرف المقابل لسريري ، تتجلى مع استفاقتي شراسة الألم ، فأتذكر الحادث ، وأتذكر المرض والحزن والموت، عاصفة حنق تهب على حبالي الصوتية ، فتحرك لساني الثقيل لينطلق بسؤال ساخط : فاضل لي قد ايه؟

- حمد لله على سلامتك.

تهنئني "ريماس" محاولة احتواء حنقي ، فلا أكترث لها، أنفض رأسي يميناً ويساراً مكررًا سؤالي: فاضل لي قد ايه؟

وكعادته لا يتردَّد الدكتور "عبد اللطيف" في إحسان ذبحي:

- فات شهر.

يهبط قلبي في صدري ، ويتصاعد الطنين والصداع والوجع ، آه .. الموت يلعب معي لعبته الكبيرة ، منذ غفوة كان نصيبي من الحياة ستين يوماً ، الآن لم يبقَ لي منها إلاُ النصف.

- أنقذتوني ليه؟

أصرخ بكل ما تستطيع حنجرتي المخدرة من قوة ، فألمح

"رماس" تداري وجهها بكفها، بينما يجادلني "عبد اللطيف":

- مفيش حد بيموت قبل ما يســتوفي عمره ورزقه يا بني، لــه لك في الحياة نصيب.

أتذكر كلمة اللافتة ،

"احييني النهارده وموتني بكرة"

فأسكت ، أسكت فوراً، أسكت تماماً.

أفضـل ما في هذا الحادث أننـي قضيتُ أغلب أوقات الألم في غيبوبـة تامـة ، أخبرتنـي إدارة المستشــــفى ـ التي نُقلـت إليها ـ أنهم اتصلوا بالدكتور "عبد اللطيف" والدكتورة "ريماس"، بعدما عـثروا على الوصفة الطبية في درج سيارتي المنسحقة، وأنّ الأخيرين أبلغا "صلاح" مدير شركاتنا بما حدث، عـلى اعتبـار أن الدكتور "عبد اللطيف" يعرفـه ، وأنهما كانا يتابعـان حالتي يوميًا وبشـكل مكثّف ، لازلـت لا أفهم سرّ اهتمامهـما بي ، الدكتور "عبد اللطيـف" عمليّ للغاية بحكم عمره وخبرته ، و"ريماس" لم تطلع على حالتي إلا قبل أسـبوع واحد ، ما ينفي أي سبب للتعاطف! ثم ما الفائدة من الاعتناء بإنسان ميت؟!

بجبيرة لا تُظهر سـوى أصابع قدمي اليسرى وعكاز أعتمد عليه أقـوم من على كرسي العجل لأدلف إلى سـيارة صديقي "صلاح" ، زميل دراسـتي القديم ومديـر شركاتنا الحالي ، هو الوحيد الذي اسـتمرت صداقتي به مـن بين كل من عرفتهم، كان دائمـاً مًا يتصـدّى لأي محاولة لإهانـة وزني وبلادتي أمام زملائنا، وطالما دخل في مشـاكل مع الجميع بسببي ، لا أدري لماذا كان يفعل ذلك؟ ربما هو ثمرة دعاء أمي لي :

- ربنا يرزقك حب الناس يا نبيل.

يستقبلني بعناق دافئ، ورائحة دخان لا تغادر سترته الرسمية أبدًا، يُعدل من شعره الأسود الكثيف، ويحبك لي ياقة البالطو، قبل أن يتركني ليتعاون مع موظفي المستشفى على إيداع حقائبي إلى داخل السيارة. فرحته الصادقة، تؤكد لي أن الدكتور "عبد اللطيف" أوفى بوعده ولم يخبره بخطورة موقفي.

- أنا مقولتش لحد على طبيعة المرض اللي عندك يا نبيل، وكمان هوافقلك على الخروج زي ما طلبت، لكن بشرط، لازم تكمل كورس العلاج بالإشعاع اللي بدأناه معاك في فترة الغيبوبة.

- علاج! ليه؟

- بص يا نبيل السرطان زي الشيطان، لو حس منك ضعف أو استسلام، بيسيطر عليك، لكن لو لقي عندك قوة إيمان وعزيمة، بيضعف ووممكن يموت.

- الضعف قدر يا دكتور.

- الضعف اختيار يا نبيل.

يعود صلاح ليهنئني:

- حمد لله على سلامتك يا نبيل.

لكني لا أرد ، لا أجد لتهنئته أيَّ معنى، أي سلامة يقصد؟ أنا عـلى قيد الموت. أتذكر، وهو يُعَدل لي موضع الكرسي الأمامي لمد قدمي ، تهنئة أبي لي يوم نتيجة الثانوية العامة.

- 70%!، يدخلوك ايه دول؟

يقولها مسـدداً لوجهي صفعة عنيفة تزلزل كياني وتشعل جنوني ، لاسيَّما أنها على مرأى ومسمع من الأقارب والأصدقاء وحتى الخدم ، أنصب وجهي في وجهه زاماً شفتيَّ من الغضب، بداخلي عاصفة انتقام شرسـة ، تحرضني على أن أرد الصفعة صفعتين ، لكنها سرعان ما تخمد حينما يواصل إهانتي:

- انت شـوهت اسمي وسـمعتي وحطمت الاسم اللي انا تعبت أبنيه طـول عمري وبدل ما تكون امتداد ليا ولنجاحي في الحياة، بقيت عالة عليا وعار بهرب منه.

لا أرد ، لم يكن في إمكاني أن أفعل ، قاسٍ جداً أن يهينك من كنت تنتظر منه أن يهنئك ، أترك أقاربنا يلومونه وأنكس رأسي وأصعـد غرفتي فأنزوي وأبكي، أبـكي كثيراً، أبكي حتى يضعف نظري.

يقاطعني بعدها لفترة ليسـت بالقصيرة نعاني فيها الخرس التـام ، تصيبنـي حالة قاتمة مـن الاكتئاب والإحبـاط ، أترك لحيتي الحمراء، تنمو، وشـعري الأشقر يشعث ، وأقضي الأيام

لا أغـادر غرفتي إلاّ نادراً، أنام أغلب الوقت وحينما أسـتيقظ أشـغل نفسي في أي شيء تافـه ، أتأمل الجدران ، السـقف ، أداعب شاشـة هاتفي ، المهم أن أقتل الوقت ، وعندما أشعُر بالجوع أنزل إلى المطبخ لألتقط أي ثمرة فاكهة فآكلها وأصعد. يمر شـهر وأنا على تلك الحـال إلى أن يجيء اليوم الذي أكون فيه في المطبخ ، أقشّر ثمرة برتقال وأشـطرها إلى خمس قطع، بعدد مرات خيباتي ، وإذ بفكرة مفاجئة تراودني وتسيطر على تفكيري ، ربما كانت بداخلي من قبل ، وربما أوحت لي بها لمعة السكين المختنق في قبضتي ، لا أدري ، الأكيد أنني لا أقاومها ، وأستجيب لها في لحظة غبية كافرة ، أقطع فيها شرياني لينفتق الجلد ويتدفق الدم ، أنتفض وأرتعش ، تخونني قدمي فأسقط على بـلاط المطبخ مخضباً كلُ شيء من حولي ، تتخالط أمامي الموجودات وتتأرجح كأنْ شـبكيّتي تهتـزّ، ثم تنطفئ الصورة وكأننـي أفقد بصري ، لا ألمـح بعدها إلاّ أقدامـاً تتجمّع من حولي، يليها ظلُّ أبي وهو يجري مع الأطباء إلى جوار "الترولي" الذي يحملني بين أروقة المستـشـفى ، فيما رأسـه يميل نحوي وصوته يبكي : "ليه تعمل في نفسك كده يبني ليه توجع قلبي عليك" .

هكذا كانـت العلاقة بيننا ، لحظات الاقـتراب كانت دائماً لسـبب طارئ، كمرض يصيبني أو مشكلة أتعرّض لها ، بشرط أن تكون المشـكلة قدريّة وليست خطأ يستوجب التقريع أو

العقاب ، كأنْ الحنان في قلبه لا يُستخرج إلا بطعنة تصيبني أو حفرة أتعثر بها. لا أذكر أنني رأيت رجلاً أقسى منه في لحظات احتياجي للحنان ، ولا ألين منه وقت الأزمات والمشاكل ، بمجرد ما يصيبني سوء تلين ملامحه العبُوسة وينخنق صوته الصارخ، فتستحيل برودته حرارة لافحة من الإحساس ، لكنه أبداً لا يكون دفئاً ، لم يفهم أبي معنى الدفء ، كان إما برداً أو جحيماً، ولم يجرب معي معنى السلام ، فهو في حالة حرب دائمة ، اعتاد أن يخرج منها منتصراً، أتصور أن المادة التي صُنع منها قلبه تشبه هذه الجبيرة التي تلف قدمي ، فقدرَ ما تكونُ ليِّنة في أصلها تكون متحجرة حين تقسو، تظن أن في قسوتها علاجاً لكل شيء ، وأن ضمنها كما تصلح لإصلاح الكسر تصلح أيضاً لمنح الحب ، لذلك أعرف جيداً أن حبه لي كان ضارًا ، محاولاته لتغييري لم تكن سوى رفضٍ للهزيمة من رجل اعتاد النجاح ، أتذكر أنْ إيقاع دقات قلبه لم يكن يعزف ذات النغمة التي كانت تعزفها مُهْجة أمي ، ربما هو كان يحافظ على امتداده ليس إلاَّ ، أتهكم وكأنني أتشفَّى منه ، هذه العائلة لن يُعَدَّ لها امتدادٌ يا أبي، ستنطفئ في ذات المَرْمدة السوداء التي انطفأت فيها جذوة حياتك ، وحياة أمي من قبلك.

النهار "بورتريه" مظلم أبدعه فنّان يائس ، والشمس ليست هناك ، لا يوجد إلا ذكرى حزينة لبقايا مرورها ، و"صلاح" يكلمني :

- وحشتني قوي يا نبيل، لما الدكتور عبد اللطيف اتصل بيا كنت هتجنن، استغربت إنك تعمل حادثة زي دي، انا طول عمري بقول عليك هادي في سواقتك.

- وانت كمان يا صلاح، تقريبا سرحت وأنا سايق.

- المهم انك بقيت كويس الحمد لله، انا قلت للناس كلها انك رحت شرم وانك قافل تليفونك علشان محتاج تختلي بنفسك شوية، مجبتش سيرة لحد غير من يومين بس، مقدرتش أقاوم زن ريدا زي ما انت فاهم.

- أنا كنت هطلب منك كده فعلا.

أقولها بينما أمنحه نظرة حسرة ، "صلاح" رجل تمنّيتُ في فترة من حياتي أن أكونه ، مستقر نفسيًا ، لا أحدَ يصنع الطقس بداخله ، كما أنه على مستوى العمل يجيد التعبير عن نفسه وينفذ إلى هدفه دائماً بأقصر الطرق الممكنة ، شخصيته كانت تعجب أبي ، كان يتمنى أن أكون مثله ، صارحني بذلك ذات مرة ، وهما يناقشان تقرير المبيعات:

- أنا عارف انت مطلعتش زي صاحبك ليه

يبتلعنا الزحام والشوارع والناس ، نخوض رحلة تيه نوائم بها الطريق الملتوي صوب المنزل ، أعمدة الإنارة تناولنا إلى بعضها البعض ، وتُخمد في كل مسافة بينها مزيداً من ضوء

المغيب ، والسـيارات تندفع باسـتهتار نحو الفجوة السوداء التي بدأت تتكوّر في السماء البعيدة ، صخب أبواقها يدفعني أن أسأل:

- هـو فيه ايه يا صلاح، حاسـس ان الشـوارع زحمة قوي النهار ده.

ينفض سـيجارته خارج زجاج السيارة ، ويجيبني من دون أن ينظر إليّ :

- الليلة ليلة راس السنة يا نبيل، كل سنة وانت طيب.

أتأمـل مزيج الأضواء الملوّنة من حولي، وأفكّر في كل هؤلاء الذين مررنا بهم، وماذا تعني الحياة بالنسبة لهم، في ظل نهاية يقف عندها الموت مُلوّحاً براياته الداكنة! لماذا يتسابقون على مقاعد رحلة تبغي الوصول إلى العراء؟

أنوار الشـوارع المنعكسة داخل حدقتي تُكوّن ثُريًا كبيرة ، أقف من تحتها في بَهْو الفيلا، أكلم أبي:

- انا عايز أسجل اسمي في معهد الموسيقي العربية.

- موسيقى عربية! يا نهار اسود، انت عايز تموتني وتقهرني؟

- انا حاسـس نفسي بحب الكمان، أول مشـوفتها حسيت انها قريبة مني.

يُشير لي بشماله :

- زي ما كنت حاسس ان الفرس المعيوب قريب منك؟

أتجاوز تلميحَه المُركّب المُهين وأعارضه :

- انا مقدرتش أكون فارس بس ممكن أكون عازف.

- عـازف ايه وزفت ايـه، بدل ما تقولي اسـافر بره ادرس الطـب البيطري، وارجع اشـتغل معاك في الشركة ولا المربط ، عايز تشتغل رقاص في الكباريهات؟

- العـزف فن راقي، وأنا حاسـس إني ممكـن أكون عازف ناجح، وليا اسم.

- اللي زيك عمره ما ينجح في حاجه، انت عمرك ما هيكون لك بصمة في الحياة، هتعيش وتموت نكرة مفيش حد هيحس بيك، عارف ليه؟ لان الحياة عايزه اللي يجتهد ويتعب وانت لا بتتعب ولا عايز تتعب.

يأسـاً مني يدير وجهه مُشـيحاً بذراعه ، ويتركني أفعل ما أريد ، لا يوافق ولا يرفض ، لكنْ ردُه ـ رغم ذلك ـ يأتي شـديدَ القسـوة ، لا يكتفي بسحب سيارتي وبطاقة ائتماني وكل ما يعبر عن شـخصيتي ، بل يقرر أن يتزوج ، ومن أول سـيدة يجدها مناسبة ، الدكتورة "نسرين" زميلته بهيئة التدريس، لم يفعلها

في حيـاة أمي لأنه كان يحبها بحق، ولا أبالغ إن قلتُ أنه كان مُتيَّماً بها، وهـذا منطقيّ، أمي كانت أنثـى رقيقة لدرجة لا توصف، وأبي لم ينســها، هو أراد أن ينجب طفلاً آخر، يعوض به خيبته في ولده الفاشـل الوحيد، إلاّ أنه ولأول مرة في حياته ذاق طعم الفشل، مات عن الدكتورة "نسرين" بعد ستة أشهر فقط من زواجهما، وخلال تلك الفترة كانت دائماً ما تشتكي لي أنه يخطئ في اسمها، ويناديها باسم أمي "مَلَك".

تبالغ الدكتـورة "نسرين" أحياناً وتقول أنّه مات بسـبب إحساسـه بالجريمة التي ارتكبها في حق أمي، بالتأكيد لا أقتنع بكلامها، مـن دون أن يؤثر ذلك على احترامي لها، علاقتي بها ودودة لحـدٍّ كبير، كل ما في الأمـر أن وجودها في المنزل كان يؤذيني نفسـيّاً.

يهـرب "صلاح" مـن الزحام وينفـذ إلى الطريق السريع، فأســمع عجلات الســيارة تكســح طبقـة المطر التي تكســو الأسـفلت، منطلقة في براح الحارة اليسرى.

"أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة".

حيرة كبيرة وأنا أجلس على ركبتي أمام جثمان أبي الملفوف بالكفـن الأبيـض، دائرة قاتمة مـن أقدام المعزيـن تطوقني، والأســود يصبغ كل شيء من حولي، يصبغ حتى كفن أبي، رغبة

عارمــة تتأجج بداخلي بأن أعاقبــه وأردُ له كل صفعاته دفعة واحدة، رغبة عمياء لا أجد لها أسوأ من أن ادفنه وحيداً وبعيداً عن قبر أمي، لن أقبل أبداً أن يجمعنا الموت كما فعلت الحياة، لن أعيش مأساتي مرتين، أعرف جيدًا أنه أوصى بأن أدفنه معها كي يضعنــي أمام اختبار صعب، فهو يُوقن تماماً أنني لن أرضى بذلك، كم أكرهه، يصر على إخضاعي حتى في لحظة موته!

- طول عمرك عاجز إنك تتخذ أي قرار طول عمرك مهزوز.

أدرك دقــة تقييمه لمعــدني الرخيص حينــما أجد دموعي تنساب رغمًا عني، لماذا أبكيه ، لماذا لا أسيطر على تلك الدموع اللعينة؟ ألهذه الدرجة أنا متردد وضعيف؟

تشــق الدكتــورة "نسرين" الحلقة الســوداء، وتجلس على ركبتها لتربت على كتفي، أرفع رأسي لأســتبين شــبح ملامحها المتــماوج في دموعي، بشرتهــا البيضاء تلمــع كدمعة يبكيها النور وسط حجاب أسود، أشاهدها تُومن لي برأسها أن أفعل، افعــل يا نبيل ، تعبث بعقلي الذكريات، أتذكر يوم اشــتري لي أول كــمان، ويوم كسره، يوم أهداني الهونــدا الرياضية، ويوم ســحبها مني، يوم طلبت منه صوري ولقطاتي مع أمي وكيف رفض وحرمني منها، تتابع المشــاهد وتختلط الصور فتمتزج الأصوات، وتتراكب الألوان، يهاجمني صداع مرير، يمتد طنينه لوقت ليس بالقصير، ثم يبتلع الأسود كل شيء.

سكون مشــوش ، أعلق معه في لحظة صمت متوترة، كأن هواجسي قــررت التوقف عن قــر ع طبولها، انتظاراً لســماع قراري النهائيّ .

- انا بحبه يا ملك، لكن دلعك فيه مش هيعمل منه راجل يقدر يعتمد على نفسه، واحنا مش دايمين له.

- انت بتطلب منه اكتر من قدراته يا مصطفى.

- أنا بكره اني اشوفه ضعيف ومستسلم.

- هو مستوى ذكاءه كده، الحكاية متجيش بالعافية.

- كل انسان ممكن يبقى متميز بالاجتهاد، ربنا خلق له مخ زي مــا خلق لغيره، أنا اتولدت فقير وشــقيت وتعبت لحد ما بقيت أستاذ جامعي وعندي شركة أدوية ومربط خيول أصيلة مفيش زيه في مصر، على الأقل هو اتولد مش ناقصه حاجه.

- مفيش حد ينفع يبقى زي حد.

- لكن ينفع حد يكون أحسن من أي حد.

أدفن رأسي في صدري وأقول بصوت متهدِّج:

- هدفن أبويا مع أمي .

تحضننــي الدكتور "نسرين" حضناً دافئاً أســمع فيه نبض

أمـي، ذات النغمــة وذات الإيقــاع، أنهل منــه حتى تغمرني الســكينة، ويســتقِرّ فؤادي المرتجف، فأقوم لأملي بصري منه لآخر مرة، يقْشعر بدني حينما أراه هامداً وضعيفًا للمرة الأولى في عمــري، فأرتكب فعلــة غبية، تتجــاوز كل حماقاتي، أميل نحوه وأقبّله مُبللاً وجهَه بدموعي، ومن وسـط ضعفي أهمِسُ في أذنه:

- الله يرحمك على قد ما عذبتني.

وبأصابعَ ترتعش، أغطي النعش بالكـسوة الخضراء، فتنطفئ كل الأنوار التي ســطعت في ذاكرتي عنه، وأغرق في الأسـوَد من جديد.

وخَزَة ألم تشق قلبي فجأةً تَفلت مني أنَةٌ يسـمعها "صلاح" بوضوح، يدير وجهه لي فيما عيناه الســوداوان تبرقان بالقلق:

- مالك يا نبيل في حاجه بتوجعك؟

- تقريبا المسكنات بدأ مفعولها يروح.

- تحب أقف نشوف الدوا في الشنط؟

- لا مفيش داعي، خليها لما نوصل.

نصــل إلى التجمــع الخامــس ونقترب من الفيــلا، فيطلق "صــلاح" النفير ليفتح "الحــاج كامل" ـ مدير شــئون المنزل

والموظف الوحيد الذي أبقيته ـ مصراعي بوابة الدخول، يدير "صلاح" عجلة القيادة ليشق بشعاعي السيارة ظلام الحديقة، ويدلف ليستقر بها أمام سلم الفيلا الرخامي ، يدور حول مقدمتها ليعاونني على النزول بينما يجلب "كامل" الحقائب، نصعد إلى الدور الثاني، حيث غرفتي، أفتحها ببطء، متوجساً، فينهمر نور الرواق في الغرفة المظلمة صانعاً مثلثاً منيراً، يكشف لي عن صورة بانوراما معلقة بعرض الجدار فوق سريري، لقطة تجمعني وباقي أعضاء فرقة "مقامات"، فرقة العزف التراثية التي أنتمي لها بالإضافة لأربعة من أصدقائي، "حازم" عازف القانون و"جميل" عازف البيانو و"رأفت" عازف العود، وكذلك "ريدا" مطربة الفريق، أوركسترا صغير نقدم من خلاله عروضًا تجمع بين الأصالة والمعاصرة، كنا قد التقطناها من العرض الأخير الذي قدمناه في الأوبرا، صورة ملآنة بالحياة والبهجة يغلب عليها الأحمر الزاهي و الأبيض الساطع المتباين مع لون الجدار الرماديّ الداكن.

أضيء الغرفة لندخل أنا و"كامل" و"صلاح" فأقول:

- لو سمحت يا حاج كامل عايز منك طلب.

يضع "كامل" الحقائب أمام خزانة الملابس على يمين الباب ويعتدل ليستفسر: أأمر يا نبيل يا بني؟

- عايز على الجدار ده ساعة ونتيجة تقويم.

وأشير بذقني للجدار المواجه للخزانة، فيندهش، يبدو ذلك في انضغاط تجاعيد جبهته وانفراج حدقتيه، لكنه يستجيب بنشاط اعتدتُه منه رغم حجمه الضئيل وقصر خطواته، لا أعرف عمره بالتحديد، فمنذ ولدت و"كامل" يعمل لدينا، وبشكل روتينيّ لا يطرأ عليه أي تغيير، حتى زيه الشتوي لا يجدده، البنطلون الزيتوني والبلوفر البندقي، ربما لم ألحظ تقدمه في السن من قبل، لكني اليوم أرى أن الموت قد بدأ يرسم لوحته التجريدية على ملامح الرجل، كرمشة حادة حول العينين، خطوط متشابكة غائرة في الوجه بالإضافة لكتل مبرومة في الرقبة، الموت لا ينسج خطته بنفس النمط إذن، البعض ينقضُّ عليهم، والبعض يستدرجهم.

رنين الـ iPhone ينتزعني من أفكاري، والكاشف يتوهّج مُظهراً اسم "ريدا" ملحقاً بصورتها الجميلة، وكالعادة، رأسها ملقى إلى الخلف، وضحكتها واسعة عابثة، أترك "صلاح" يتفاهم مع "كامل" حول مواعيد الأدوية وجرعاتها، وأمسح الشاشة لأستقبل صوتها الدافئ:

- نبيل أنا مش مصدقه إني بكلمك، وحشتني قوي الفرقة كلها هتجنن وتشوفك.

- انتم كمان هتوحشوني قوي.

- هتوحشك ازاي؟

أمسح دمعة فرّت مني قسراً وأقول:

- اقصد وحشتوني .

- احنا زرناك كتير بس منعرفش إنك هتخرج النهارده .

- أنا كمان مكنتش اعرف.

- مال صوتك؟ انت لسه تعبان؟

- آه شوية.

- معلش الحمد لله انها جت لحد كده، كلنا ممكن نتعرض لحادثة بعني مش نهاية الحياة ومسيرك تفك الجبس وتبقى كويس.

لا أرد فتسترسل في كلامها:

- انا هجمّع الفرقة ونجيلك بكرة من بدري.

- اوك هستناكم.

- ماشي يا قلبي مع السلامة.

تُنهي المكالمة فأكشط دموعي بأناملي وأتذكر يوم خفق

قلبي لها، وقتها لم أكن أفهم أيَّ شيء عن الحب، مجرد عناق سريع منحتني إياه يوم توفي أبي، عبث بعقلي وجعلني أتصور أنها تحبني، عطرها أوقد بداخلي ذكرى حالمة لحضن أمي، لم أسمع من قلبها ذات الإيقاع الذي كانت تعزفه نبضات أمي، لكني أقنعت نفسي بأنْ الأمْ غيرُ الحبيبة، إلاَّ أن المسألة انتهت قبل أن تبدأ، فلم أكَدْ أصارحها حتى رأيت في اتساع عينيها دهشة استنكار مؤلمة، كأنها تقولُ لي: أغبي أنت؟ لست حُلمي ولن تكون ، لم تنطقها ، لكن نبرتها المرتبكة صرخت بذلك:

- نبيل انت زي أخويا .

لم أذُق في حياتي كأساً أشدُّ مرارةً من ذلك الذي دعوتها له على طاولة مصارحتي، أحسستُ بأنني أتضاءل، وأن المسافة التي تفصل بين مقعدينا تتمدد وتتباعد، تمسي أبعد من أن أسمع بقية كلامها، أبعد حتى من أن أراها، وأن صدى تغريد الطيور التي كانت تجتاز السماء راحلة نحو قرص المغيب لا يحتفي بنا كما كنت أظن، بل يُشيُعنا إلى وجهتين متعاكستين، ندمتُ حينها على تعرية تلك المساحة المحتجبة من مشاعري، فلم يكن قراري هادئاً ولا مدروساً، كان ثورياً طائشاً، موتُ أبي جعلني أظن أن كل أبواب السعادة ستنفتح لي على مصراعيها، ولِمَا لا وقد تحرَّرتُ من القيد الذي طالما كبَّلني به تحت قدميه مثل كلب الصيد؟ لذلك رفْضُ "ريدا" كان بمثابة ارتداد

صادم لحالة النشـــوة التي خلفها رحيله. مذاق مرير لإخفاق جديــد، لكني بالأخير تجاوزت الأمر. دمائة خلقها ســاعدتني على ذلك، يكفي أنها لم تخبر أحداً بما جرى ولم تستغل مراهقة عواطفي لصالحها.

إلاّ أنني أعود وأحترق بنــيران الغيرة، حينما تصُبُ نظرات الإعجــاب المتبادلة بين "ريدا" و"صــلاح" حميمَ القهر داخل حلقي، علاقة الحب التي تنشأ بينهما تصهر بقايا ما في روحي من إحساس ، تمتلئ نفسي بالهزيمة لدرجة أنني أصاب بالمرض وأهــرب من حضور حفــل خطبتهما، لم يكــن باحتمالي رؤية قُبلتَــه وهي تنطبع على خدها، علامة حبُها له ماهي إلا ندبة ضعف تحفر لنفسها أخدوداً جديداً في شخصيتي.

ألتفــت إلى "صلاح" الواقف مــن ورائي وفي ملامحه تتكتّل علامات التعجب، أوجّه له ســؤالاً مباشراً لكن بصوت خفيض يكتم أكثر مما يبوح:

- هو رصيدنا في البنك كبير يا صلاح؟

يتفاجأ بالسـؤال، لكنه يرد بشكل بديهيّ:

- الخير كتير الحمد لله؟

- طيب عايز كشف حساب عن السيولة الموجودة وياريت يجيلي بأقصى سرعة، ابعتهولي حتى على الإيميل.

- حاضر، بس فهمني انت ناوي على إيه؟

- معلش ريحني واعمل اللي اقولك عليه من غير متــأل.

يسكت قليلاً كأنه يحاول أن يفهم، ثم يعود ليسأل:

- نبيل انت فيك حاجه؟ زعلان من حاجه؟ حاجه مضايقاك؟

- ليه بتقول كده؟

- انت مش شـايف نفسـك! دموعك موقفتش من وقت ما خرجت من المستشفى، وعينيك حمرا زي الدم.

- لا بس يمكن ظروف المرض اللي مربت بيها خلتني اشوف حاجات مكنتش شايفها الأول.

يتردّد قليلا ثم يأتيني صوته مُحمّلاً فوق تنهيد طويل :

- يعني انت كويس؟

- انا هابقى كويس لو عملت اللي طلبته منك.

- زي ما تشوف.

- شكرا يا صلاح على تعبك معايا.

- عيب يا نبيل متقولش كده، احنا اخوات، بس لو حسيت بأي تعب اتصل بيا فورا وفي أي وقت، أنا كلمت المستشــفى

يبعتولك ممرضة تيجي تتابعك الفترة الجاية.

- لا لا ملهاش لازمة.

- ليه؟

- الحـاج كامـل كفاية. انت عارف انـه مربيني وانا برتاح معاه.

- زي ما تشـوف. أنا هسيبك علشـان عندي شغل كتير في الشركة بس أي حاجه تحتاجني فيها اتصل فورا.

يمنحني عناقـاً قوياً ويغـادر، يتركني لأختلي بمعشـوقتي الجميلة، الكمان.

لازالـتْ كما تركتها، متكئة على الجدار فوق خزانة الكتب، كأنها تنتظر قدومي. يا الله، كم أوحشـتني. لا أتصور أنني لم ألمسها كل تلك الفترة وأنا الذي لم أفارقها ولا مرة منذ عرفتها، أحملها وأضمُّها، أمنحها قبلة اشـتياق كبـير، أطفئ بها حرقة ابتعادي عنها.

لا أحـد يفهم أبداً كيـف هي علاقتنا يا صغـيرتي، لا أحد يتصور قصة عشـقنا، لا أحد يعرف أنني بالنسـبة لك هركليز الضخم وأنت أميرتي الفاتنة التي تعشـق أن تتسـلق صدري وتمدد جسدها الساحر بين ذراعي وكتفي، تتدلل حتى أعانقها

.. فني فتفرد شعرها الذهبي الطويل من فوق وجهها،
..دعوني لأغازله بأناملي كي تحاديني، كم يلامس صوتك
الحزين كل أوتار الشجن في دواخلي، كم يبثني من الحنان
والمواساة، راقصتك كل رقصات الحياة بما فيها من ألم وأمل،
فهل تجمعنا يوما رقصة من رقصات الموت؟!

- فاشل عمرك ما هنسيب ذكرى في الحياة.

- فات شهر.

أشعر بانقباض مفاجئ في قلبي، فأضمُها كأني أحتمي بها،
أو كأني أحميها، أريح جسدي المكدود فوق السرير، وأغمض
عينيّ.

ظلام في ظلام، سواد ليس فيه إلاَّ بقعة ضوء، ومسرح أقف
عليه وحيداً ومستوحشاً، الكمان نائمة على كتفي، وشيء غريب
يحدث لي، القوس يتمايل فوق الأوتار، لكن دون أن أحركه،
دون أن أفعل شيئاً، أذرعي منسدلة إلى الأسفل وموسيقى
"رقصة الموت" تعزف نفسها بانفعال جارف، إيقاعها الملحميّ
يتصاعد وأنا هائم معها في حالة وسط بين الوعي واللاوعي،
لكن ماذا تفعل بقعة الضوء هنا ؟ أنا لا أعزف لأحد، لا
أطيقها ولا أريدها، أريد فقط أن أغرق في الظلام، أنا والكمان
والموسيقى والألم.

نبيـل ... أحدهم يناديـنـي، لكن العزف يسـتمر، نبيل ... أرجـوك أيها القوس اسـتمر، صـوت الوتر يسـتحيل غليظاً سـاخطاً، صول .. ري.. وبقعة الضوء تخفـت، نبيل ... نبيل ، أنامل تُربِّت فوق كتفي، صوت هامس يتنامى، نبيل ... تتلاشى البقعة ويتوهَّج المسرح ... أفيق.

أبـصر رؤوسـهم تظللنـي، "ريـدا" ومَنْ حولهـا "حازم" و"جميل" و"رأفت" :

- حمد لله على سلامتك.

كنتُ نائماً.

أعتدل فتقابلني على الجدار سـاعة حائط ، شـبيهة بتلك التي رأيتهـا عند الدكتور "عبد اللطيـف". لكن هذه مينائها أسود. يبدو أن "كامل" أحضرها أثناء غفوتي، لكن أليس غريباً أن تحتلَّ ذات المكان الذي كانت تجلس فيه الكمان منذ قليل؟

أندهش حينما أجدها تشـير إلى العـاشرة صباحاً . أطلتُ النوم أمس بصورة غير معتادة.

- سرحان في ايه يا فنان؟

يسـألني حازم فأعانقه : وحشتوني ..

انت كمان وحشتنا جدا. يعانقونني جماعةً وهم يقولونها

في صوت واحد بينما يضيف "رأفت": هات رجلك خلينا نكتب لك ذكريات على الجبس، الدكاترة منعونا واحنا بنزورك نشخبط.

ويُخرج قلماً، ويبدأ في كتابة كلمات شديدة الإيلام.

"حادثة تفوت ولا حد يموت" ..

يضحكون ، بينما أزوغ أنا مع المعنى، "فعلا ولا حد يموت"

تربت "ريدا" على كتفي وتميل بوجهها الجميل نحوي ...

- انت كويس؟

أشعر بالأمان حينما يحجب شعرها المتهدل نور النهار، المتسلل من النافذة التي يفتحها "حازم"، وأقول بارتياب :

- آه

- حاساك متغير، كأن في حاجة مزعلاك ؟ حتى صلاح كلمني وقلقان عليك.

- لا ألم الكسر بس.

- طيب ايه رأيك الليلة عندنا حفلة في الساقية تحب تيجي؟

- أوسد جبهتي لكفي كي أهرب من عينيها وأقول: خليني

لما أخف أحسن.

- دي حفلــة دخلهــا هيكــون دخلها لمستشــفى 57357، علشان خاطري تعالى معانا.

- واحشــني نعمل دويتو اللقا التاني، بين البيانو والكمان يا نبيل.

- وانا كمان يا جميل واحشني قوي.

- طيب هاتيجي؟

فأبتســم وأقول: حاضر هاجي.

تــصرخ "ريدا" فرحة ويهللون جميعاً لموافقتي ، نتســامر قليلاً ثم يغادرونني لأختلي بالحقيقة.

الموت حقيقة تائهة بين أكاذيب البشر.

أشــعُر بوحشــة غريبة، كأن روحــي لازالــت تتعرف إلى جسدي، أظن أن العودة من غيبوبة طويلة تشبه إلى حد كبير العودة من الموت.

- آه، صداع رهيب.

أقوم لأدفــع باب الخزانة لتبديل ملابسي، ينزلق إلى مجراه كاشــفاً عن المــرآة التي تبيــت خلفه ، أســتغرب حينما أرى

هيئتي الجديدة، رأسي الحليق وجسـدي الـذي نحل، عيناي الجاحظتان والهالة السوداء التي تحيطهما، ملامح تجعل مني شبحاً مخيفاً لرجل لا أعرفه. أو ربما هناك من ينظر إلى نفسه في المـرآة وأنا مجرد انعكاسـه. أظن أن هـذا يصفني إلى حد كبير. أنا أعيش داخل تلك المساحة الفاصلة بين نفسي وأبي، بين ما أنا عليه الآن وما كان يريدني أن أكونه. أنا ببسـاطة صورته المشوَّهة المنكسرة، حتى أنني أراه الآن من خلف كتفي، يقف تحت الساعة يوبخني:

- هتعيش وتموت بليد وفاشل.

يقولهـا بينما يّبرم ترس التاريخ البارز على إطارها، يضبطها عـلى تاريخ مُـا، كأنه يتدخل في تحديد أجـلي. أحاول قراءته لكـن الصداع يهاجمني فجأة. يشـوش بـصري ويعجزني عن اسـتيضاح أيِّ رقم. بالكاد ألمح إصبعه يدير عقرب الساعات. فاسـمع خمس دقـات متتالية، كأنها أجراس كنيسـة بعيدة. يشـتد معها الألم والصداع. يتشوّه المشهد تماماً. أتيهُ في غيمة ضباب كثيفة. لا ينجيني منهـا إلاّ أن أهرع إلى الحمّام وأضع رأسي تحت سـيل الماء. تصدمني برودته كأشد ما يكون. حتى أن عينيْ تنفتحان على اتساعهما وأشعر أن عروقهما تتصلب، لكني أتحمل وأنتظر حالماً أسـتفيق تماماً . فأخرج من الحمام وأجفـف رأسي بينما بداخلي تتكون أفكار مظلمة. لا يمكن أن

أمـوت قبل أن أهزم أبي، حتى لو تطلب الأمر أن أهدم كل ما بناه، لكن كيف؟

أصل إلى فكـرة جنونيّة في غضون دقائـقَ قليلة فأخطف الـ iPhone ومحفظتي والمفاتيح، وأغادر لأسـتقلَّ سيارتي الـ Jeep، متّجهاً صوبَ شارع محمد علي.

أغرق داخل مقصورة السـيّارة، في شـجن موسيقى اللقاء الثاني لعمر خيرت، فتبدو مشاهد الحياة حُلماً سرياليّاً غريباً.

أتذكر كلمات الشـاعر "سيد حجاب" القاسية على نفسي :
"أحلى سنين العمر بينا تمُر، يا نعيش هوانا .. هوانا .. حلم ليلة صيف، يا نتوه خطانا في ليل شتانا المر".

أردِّدها بإحساس رهيف ، أرددها حتى أصِلَ وجهتي.

- 3 -

"ورشة خليل نصيف لإصلاح الآلات الموسيقية" ...

على بُعد متر من هذه اللوحة أوقف سيارتي وأهبط بقدمي المجبّرة في حـذر، يلفت منظرها انتبـاه رواد المقهى المجاور، لدرجـة أنَّ أحدهـم يتوقف فجأة عن رشـف كوب الشـاي المسـتقر بين يديه، لكني لا أهتم ، أتوكأ عكازي وأتحرك ببطء لأمر من تحت اللوحة إلى دواخل الورشة العتيقة.

كعادتـه يجلـس الأشـيب المُعمَّر "خليـل نصيف" خلف مكتبه، على اليمين من الورشـة، ومن فوق رأسـه تتدلى ثلاث آلات معلقة على الترتيب ، جيتار.. عود.. كمان ، مدليًا نظارته إلى أرنبة أنفه، وظهره محنيّ نحو كمان مسـتقر على ركبتيه، يحـاول "خليل" شـدّ وتـر ال "ح" بعد أن دككـه ومرره من فوق المشط ، لكني أرى أصابعه ترتعش بشكل يستحيل معه السـيطرة على الوتر، الوتر كالفرس إن شعر بضعف شخصية فارسـه جمح وعصى، وما أراه هو أن أصابع "خليل" العجوزة تخونه، حتى الإصرار الذي يرتسم على ملامحه وهو يشد الوتر بعـزم لا يلبـث أن يلين مهزوماً مع ارتخائـه بين أصابعه حين يفشـل، أتوقع منه أن ييأس سريعاً، لكنه يُخلِفُ ظني ويُعَدِّل من وضع الكمان، يمسكها بين فخذيه موجِّهاً عنقها لأعلى، قبل

أن يشرع في لف الوتر على المفتاح، وإدارته بروية ليشتد فوق العنق، رغم ذلك لا تسير الأمور معه على نحو طيِّب، ينقطع الوتر فجأة مُصدراً رنة فشل، تضطرب معها عضلات وجهه، كأن إبرة وخزتها.

يؤسفني أن أراه ضعيفاً هكذا، "خليل" كان أبرع آلاتي في مصر، لكن يبدو أن المهارة تنتحر في صاحبها، حينما تستشعر نهايته.

أتدخّل لأُسرِّيَ عنه: مساء الخير يا أستاذ.

يمسحني بنظره تفحصية من فوق عدسات نظارته، ثم يقوم ليصافحني حينما يستدل على ملامحي:

- نبيل ازيك يا فنان. ويستدرك بضحكة قصيرة مرتبكة:

- معلش بقى انت أن عارف الأوتار الأيام دي كلها صيني مبتتحملش.

- ولا يهمك يا ارتست يا كبير.

تتسع ابتسامته مع إطرائي ويقول: بحب اللقب ده قوي، عارف مين أول واحد وصفني بيه؟

ورغم أنني أعرف، أتركه يستطرد في حماس :

- العظيم فريد الاطرش، كنت دايما أظبط له شـدة العود، ومكنش يطمن لحد غيري، شـايف العود المكسور اللي هناك ده.

ويشير بأصبعه إلى أنتيك معلق وسط مجموعة من القطع الموسـيقيَّة وصور بالفحم للمطربـين، ويُردف : ده عوده اللي انكسر في فيلم "عنان".

ينتبـه فجأة إلى أنني أسـتند إلى عكاز مـن الحديد وحول قدمـي جبـيرة ، فيزيد من انحنـاءة ظهره ، ويشـير بذراعه يدعوني للجلوس:

- اتفضل اقعد معلش العتب على النظر.

نجلس إلى مقعدين من الأرابيسك بينما أقول:

- انا مش هعطلـك، أنا عايز منك طلب وعارف إنك تقدر عليه.

- اتفضل يا فنان.

- عايز وتر مبيتقطعش.

يرفع النظارة عن أنفه ، ويفرك عينيه قبل أن يعترض :

- مفيـش وتر مبيتقطعـش، الوتر له عمـر، ولازم تيجيله

لحظة ينتهي فيها، واللحظة دي بنعرفها لما الوتر يبدأ ينشـــذ، فبنديله الشَدة الأخيرة.

تُوجعني كلماته، لكني أتماسك وأقول: أنا عارف إنك تقدر تعمله وكمان محتاجه بكرة بالكتير.

يستوقفني مُشيراً بكفِّه، وعائداً برأسه الأصلع للوراء:

- على مهلك عليا يا فنان انا راجل عجوز وصحتي مش زي الأول، وتر زي ده حتى لو قدرت أعمله هياخد مني وقت.

- أنا واثق إنك تقدر تنجزه وفي ليلة.

يضحك في جذل وتزوغ عينه البُنية بعيداً ، كأنه يســتحضر ذكــرى نجاحات قديمــة ، بينما أمُدُ له يــدي بمبلغ من المال: اتفضل دول ألفين جنيه.

- لكن ده كتير!

- معلش، علشان تقدر تتحرك بسرعة.

- أنا هعمل كل اللي أقدر عليه.

وألمح لمَعَة ثقة تتوهج كشهاب داخل عينيه، فأفهم أنه قد عقد العزم على استعادة نجاحه القديم .

أغادره إلى ســيارتي فيأتيني اتصال هام، أردُ مُرَحِباً بالمتصلة

وأسألها :

- ها طمئنيني أيه الأخبار؟

- أنا موافقة.

نتحـــاور قليلاً ثم أنهي الاتصال وأتجـــه من فوري إلى بنك HSBC ، اتخـــذت قراراً آخرَ بشـــأن الثروة التي ورثتها عن أبي بعفوية تامة ، فقط أهملـــت كل أفعال الخير التي كان يقوم بها، فوجدت الحل يتشكل من أمامي واضحاً جلياً، صحيح أنه ماله وهذا أكرهه بشدة ، لكنه يبقى خياري الوحيد.

أكتشـــف فجأة أنني أقترب من مكتب موظفة خدمة كبار العملاء ، لا أدري متى هبطتُ من الســـيارة ، ولا متى دخلتُ، كنتُ شارداً تماماً.

تصافحني بابتســـامة رسميَّة ، تشـــترك مع قميصها الأحمر المحبوك، وشـــعرها الكيرلِ وكذلك تنورتها السوداء القصيرة في منحها جمالاً ممزوجاً بالكثير من الوقار، أسند عكازي إلى ظهر الكـــرسيّ ، وأجلس قبالة مكتبها الأبيض في تأنٍ ، بينما تبســـط هي كفَّها تدعوني لاتخاذ أي وضع مريح.

- ارتاح يا أفندم.

نرمين كمال، "خدمة تميز"، هكذا يشـــير اســـمها المكتوب

بالأحمر، على الدبوس الأسود، المعلق في جيب قميصها.

- أقدر اخدمك حضرتك ازاي؟

أمرر لها بطاقة حسابي قائلاً : عايز أعمل ارتباط مالي من حسابي لحساب مستفيد تاني.

تلتقط البطاقة، وتضعها أمامها على طرف لوحة المفاتيح، ثم تضرب أرقام الحساب ، وتنشغل في متابعة ما تعرضه الشاشة اللازوردية.

ملامحها الجميلة وتعبيراتها المُهتمة تذكرني بإصرار "ريدا" وجديتها، حتى أنها تفوح بذات العطر الذي تضعه، والذي كانت أمي تستخدمه من قبلهما، "لانكوم".

تدير وجهها لي بابتسامة واسعة ، فأرتبك وأسقط بصري ناحية قدمي ...

- نبيل مصطفى نبيل الليثي، حسابك حضرتك مُفعّل تقدر تجري أي عمليه انت حابها، اتفضل.

- ده رقم الحساب التاني.

وأمرر لها قصاصة تحمل بيانات المستفيد الآخر، فتلتقطها وتنقلها على لوحة المفاتيح ، من دون أن تنظر لها ، وأعود

الابعها وهي تمســح النتائج بعينيهــا في اهتمام ، بينما وهج الشاشــة ينعكس على قسَمَاتها الجميلة، وتعود لتكلمني فور أن تتأكد:

- تمام والحساب ده كمان مفعل كده نقدر ننفذ الارتباط .

وبأســلوب رصين تُخرج لي من أحد أدراج مكتبها استمارة تحمــل شــعار البنــك ، وتضــع فوقها قلــماً أنيقــاً ، تدعوني لاستخدامه:

-اتفضل حضرتك سجل بيانات المستفيد وبياناتك.

أملأ جميع بياناتها ثم أوقعها وأســحبها بسبابتي وإبهامي على ســطح المكتب لأقربها منها. تندهش حينما تشاهد خانة مبلــغ الارتباط ، تســكت لبرهة ، كأنها تحاول أن تســتوعب الموقــف : 20 مليون جنيه؟!؟ تنقر بالمــاوس مرتين ، وتركز في قراءة ما تعرضه الشاشــة ، ثم تعود فتقــول: ده نص الرصيد تقريباً، حضرتك متأكد من المبلغ المكتوب؟

- أكيد.

- في الحالــة دي لازم أخد موافقة مدير البنك ، أنا آســفة المبلغ أكبر من صلاحياتي .

أومــئ لها بــرأسي موافقــاً، فتمنحني ابتــسامة مضمومة

الشفتين ، وتتحرك في نشاط لإنجاز كل الموافقات المطلوبة، تستغرق قرابة النصف ساعة قبل أن تعود لي باستمارات الموافقة كي أعتمدها ، ومع آخر توقيع أستأذنها: ممكن طلب كمان؟

- في خدمة حضرتك.

أمرر لها ثلاثة شيكات ، كنتُ قد حرَّرتُها سالفاً ، وأستكمل:

- عايز أتأكد من صحة توقيعي على الشيكات دي، مش عايز يكون فيه أي مجال لرفضها في المستقبل.

تدققهم واحداً تلو الآخر، مقارنة بين التوقيع المحرر بالشيك، والآخر المسجل داخل النظام الإلكتروني ، قبل أن تعيدهما لي ، بإيماءة واثقة مؤكدة : التوقيع سليم والشيكات مظبوطة.

- أشكرك جدا.

- تحت أمرك.

أهمُّ بالمغادرة ، لكنها تستوقفني مشيرة بأصبعها: في عندي حاجه في السيستم، المفروض كنت حضرتك تشوفها من فترة.

أسألها مضيقاً عيني : خير؟

- وديعة باسم حضرتك، أودعها لك مصطفى الليثي، يعني والدك، المفروض ان ميعاد فتحها يكون خلال ســنة من وفاته ودلوقتي مر تقريبا سنة، تحب حضرتك تشوفها؟

أضطـرب وتتدافع دقـات قلبي، يتمـدَّد قلبي كأضخم ما يكون ويتقلص كأصغر ما يكون . كأنني مقبل على أمر خطير، "صلاح" حدثني عن تلك الوديعة كثيراً، طلب مني أن أفتحها أكـثر من خمس مرات . مبرراً أنها آخـر وصايا أبي، فلماذا؟ ما المهم بشــأنها؟ ما الذي تحمله من أسرار؟ فضولي يدفعني أن أفتحها، لكن هواجسي تمنعني بكل ما فيها من خوف ونكران، بالنهاية أســتجيب لنذير الخوف المتصاعد في نفسي، وأسحب عكازي لأعتمد عليه في أن أقوم، أقول لها:

- لا أفضل اشوفها بعدين.

تقــوم وتلف حول مكتبها بأقصى سرعة يســمح بها كعب حذائها . باســطة يدها لأعتمد عليهــا . أتأمل كفها الممدودة لي، تبدو كأنها جسر يقودني إلى روحها، أرفع رأسي لها فتتقابل نظراتنا، تربكني عيناها الســوداوان كأشــد مــا يكون، فيهما ابتســامة حيــاء تلخص أجمل مــا في الحياة، أتــردد في قبول مســاعدتها بينما يدها الممدودة تحرجني، بالأخير أســتند إلى كفها وأقوم، لكني بمجرد أن أستقيم أسحب يدي فوراً وأغادر

في لا مبالاة ، يصيبها اندهاش كبير من تصرفي، ألحظه في اتساع عينيها واستدارتها البطيئة، لكني أتفهمه، هي لا تعرف أن دفء لمستها كان بمثابة لسعة تحذرني أن أتعلق بشيء من تلك الحياة، رأيت الموت لحظتها من خلف زجاج البنك، يتعجلني مشيراً إلى قرص ساعته، كأي سائق تاكسي ملول ، لذلك وبمجرد أن أغادر البنك وتحتويني سيارتي أعود للتفكير في واقعي المظلم، ألتقط الشيك الأول وأرفعه أمام عيني لأقرأ بياناته، المبلغ: 5 مليون جنيه، اسم المستفيد:

" الدكتور جلال عبد القادر"،

طبيب بيطري.

- 4 -

تفـترق دفتا المصعد لتقابلني اللوحـة البيضاء التي تحمل اسـمه وتخصصه، بالـدور الأول من عمارة الأطبـاء العتيقة بشـارع الحرية، أتخطى الممر إلى العيادة، وأرتكز على العكاز، فأدفع الباب في هدوء لأدخل.

لازالت العيادة على حالها منـذ آخر مرة زُرتُها فيها، كنب متهالك وموكيت أخضر مترب، ومكاتب معدنية عتيقة طلاؤها مقشر.

يستقبلني مساعده "سـميح" بترحاب بشُوش ، سرعان ما يتلاشى فورَ أن يلحظ حالتي:

- أهلا وسهلا يا أستاذ نبيل وألف سلامة عليك.

- ازيك يا حاج سميح، كويس إنك لسه فاكرني.

- طبعا فاكـرك يا بني أبوك كان عزيـز وغالي وانت عزيز وغالي.

أتجاوز إطرائه وأسأل: الدكتور موجود؟

- آه بس في المعمل، تحب تنتظره هنا ولا أســ ..

يعرض أن يصحبني إلى الداخل. لكني أستوقفه بإشارة من كفي الأيمن. فيما أواصل، توكُؤ عكازي إلى المعمل.

أول مـا يلفت نظـري حين أدخل لوحة مرســومة بمنظور محــدب لمُهر رمادي يقف وحيــداً ومنبــوذاً في زاوية ميدان الرَمَــح، ملامـــها الأرجوانية المنســحبة عــلى أغلب ضربات الفرشــاة تباغت ودائع ذاكرتي، تحقــن فجيعتي بدفقة إحياء مركزة . لكنّي أبتر أيَّ إرهاصات قد تجرني لألمي القديم ، أنقل بصري سريعاً إلى الدكتور "جلال" ، صديق أبي الصدوق، والذي ظلَّ يساعده في الاعتناء بخيول المربط حتى وفاته:

- مساء الخير يا دكتور جلال.

يرفع رأسه عن الميكروسكوب ليجدني أقف عند الباب:

- نبيل! ازيك يا بني.

وبرفق يرفع الشريحة ويعيدها إلى حافظتها، قبل أن يدور حول طاولات المعمل البيضـاء ، المُتخمة بالأنابيب والعبوات الزجاجية ليستقبلني .

ملامح الدكتور "جلال" تشبهني إلى حد كبير، وجهه مكتظ، زواياه حادّةٌ ، وشــعره أشــقرُ ناعم ، الفارق الوحيد بيننا تلك

التجاعيد التي خدّدها الزمن حول قسماته.

- من يوم وفاة والدك رحمة الله عليه، متقابلاتاش و..

يصدمه أن يراني أستند إلى عكاز وقدمي مكسورة ، أفهم ذلك من تضييقه لحدقتيه العسليتين وسقوط فكه العريض ، لكنه لا يطيل حالة الانقباض تلك، ويسألني فوراً: خير إيه اللي حصل لك ألف سلامة عليك؟

- الفرس رجلة انكسرت يا دكتور.

أقولها بنبرة تهكميّة، ويفهم ما أعنيه ، فيعترض مشيحاً بذراعه: يا راجل حرام عليك متقولش كده ان شاء الله تبقى كويس، اقعد، اقعد.

يُجلسني على كرسي وثير من الجلد ، ثم يجذب آخَرَ لا ظهرَ له ويجلس أمامي:

- انا معرفش والله بالحكاية دي والا كنت زرتك، وانت من يوم وفاة والدك لا زرتني ولا أعرف عنك حاجه.

ينتبه فجأة إلى أن الكسر حاصل لقدمي اليسرى، فيعود إلى حالة الجزع : ايه ده هو الكسر في رجلك الشمال، مش تخلي بالك على نفسك يا ابني.

- أنا عملت حادثة.

- حادثة؟!! وازاي محدش يقولي حاجه زي دي؟

- مفيش حد كان عارف.

يسكت قليلاً كأنه يتجاوز إحساس الأسف، ثم يعود فيقول:

- عموما حمد لله على سلامتك، الحياة على كده وكده يوم حلو ويوم مر.

- انا مدقتش منها غير المُرّ يا دكتور، لحد مبقتش حتى اعرف أميز طعمه.

يميل بوجهه ليواجهني معارضاً: يبني الحياة لما بتقسى على حد بجد، مبيعرفش حتى يشتكي، روحه بتتخنق لحد ما تموت، وانت دايما مش شايف نعم ربنا عليك، انت غني وعندك هواية بتحبها وشاب مهذب واخلاقك عالية ودي كلها نعم لازم تحمد ربنا عليها.

- اعمل بكل الحاجات دي ايه دكتور؟

-تعيش حياتك تسعد نفسك وغيرك.

- أنا مليش حد، أنا لو فيه حد في الدنيا دي مستنيني، كنت

هقاوم المرض والحزن والفشــل، صحيــح هي حاجات صعب
،هــاوم لكن احســاسي ان بعمل ده علشــانه، كان هيخليني
امسك بأي فرصة ولو ضعيفة علشان أكون معاه.

- ومين قالك مفيش؟ مش يمكن انت اللي رافض حد يقرب
منك؟

أهــرب من مواجهته إلى نافذة المعمل ، أريد أن أصرخ فيه
بأن كل هذا سراب ، أطلق بصري في السماء المفتوحة كي أطفئ
جمر ســخطي في برودة الســحب المتكثفة على مرآة السماء ،
أسرح في تشــكيلاتها قليلاً ، كيــف تتعانق ثم تفترق ، قبل أن
أمالك نفسي وأعود لأمد يدي له بالشيك :

- اتفضل.

يتناوله ويقرأه سريعاً فتُباعِد الدهشة بين قَسَمَاتِه :

- ايه كل المبلغ ده؟ وليه؟

- علشان اللي حصل ميتكررش.

- ليه مش قادر تنسى الموضوع ده يا ابني؟

- اللي حصل ميتنسيش يا دكتور.

- طيب انت عايزني أعمل ايه بالفلوس دي كلها؟

- عايزك تشوف حل.

- طيب ليه جيتلي ومرحتش لشركة والدك؟

- مش عايز حد هناك يعرف، ومفيش حد فيهم هيفهم ولا هيهتــم ده غير ان عندي ثقة انــك الوحيد اللي هيقدر يلاقي الحل.

يطوي الشيك ويحاول أن يعيده إليّ:

- مهما وصلنا من علم مش هنقدر نعارض قدر ربنا.

- العلم بيتقدم كل يوم.

- يبني الموت ملوش علاج.

أقبض على يده التي تمسك بالشيك وأنظر في عينيه وأقول:

- لكن المرض له.

يتخلــص من زفرة طويلة ثم يُربِّت على قبضتي ويســحب يده قائلاً :

- طيب انا هاخد الفلوس بس بشرط.

- ايه هو؟

- والدك الله يرحمه أوصاني على سرير موته، إني أتأكد إنك فتحت الوديعة اللي سابهالك في البنك، وانا لما سألت صلاح من فترة قالي انك مفتحتهاش.

أستنكر طلبه : يا دكتور انا مش ناقص فلوس ؟

- ومين قال لك إنها فلوس!، مش يمكن حاجة أهم؟

- طيب لو فتحتها تنفذلي طلبي؟

- أوعدك.

- أشكرك يا دكتور، حضرتك بجد ريحت قلبي.

أقوم مستنداً إلى عكازي ويعاونني لأقف فأمسك بذراعهِ وأقول نافذاً ببصري إلى عينيه :

- أوعدني إنك توصل لحل يا دكتور.

يُطبق جفنيه ويفتحهما دليلاً على الموافقة ، فأطمئن وأغادره، لكن دون أن تغادرني صورة الجواد ، أهبِط إلى مدخل العمارة تصاحبني دقّات عكازي على بلاطها المصقول ، لكن الأرض سرعان ما تلين من تحت قدمي ، حينما أحس بحفيف

عشـب ندي يداعب خطواتي، وأنا أسير في غماره ممسكاً بيد أمي.

- بابا عايزك تبقى فارس يا نبيل، علشـان كده طلب مني أجيبك المربـط تختار مُهر يبقى صاحبك، وتتعلم الفروسـية عليه.

أسألها باندهاش طفل بريئ ، لم يتجاوز العاشرة من عمره:

- أختار أي مهر انا عايزه؟

- أه يا حبيبي، أي مهر قلبك يحبه.

تمتلـئ نفسي بالنشـوة والفرحة بينما أمـشي إلى جوارها ، نقطـع الممشى الرمليّ المُفضِي من الكوخ الخشـبيّ إلى ميدان رمـح الخيول . هواء الشـتاء المنعش المُعبَق برائحة العشـب يجوب المساحات الخضراء الممتدة فيلاعب شعري ويطير ثوب أمي ، تمتلئ نفسي بالأمان مع حفيف ثوبها لجسدي فأتشجع وأطلب: ينفع نعيش هنا على طول يا ماما؟

تضحك أمي ضحكة رائقة ، مجيبة: لا طبعا يا حبيبي ، لكن أوعدك نيجي هنا كل أسبوع ، بشرط انك تجتهد في دراستك.

نصـل إلى الميـدان ، فأترك يدها وأجـري لأنفذ برأسي بين

العوارض الخشبية من أجل أن أراقب الخيول ، تعجبني كلها، لكن يلفتني ذلك المُهر الأصيل الواقف عند الزاوية البعيدة ، أي، فيه يخطفني من أول نظرة ، ربما رأسه الصغير ذو الخطم الأسود والعينان الكحيلتان طويلتا الرموش ، وربما شعره الأسود الطويل المتهدل على عنقه المقوس ، أو بدنه الرمادي المنقوش ببقع داكنة تنسحب عند خصره ... لا أدري! لا أجد سبباً واضحاً يجعلني أحبه بهذه السرعة ، غير أنه حينما يبدأ في التحرك أفهم ، المُهر يعرج في مشيته بشكل بائس ، ساقه الأمامية اليمنى أقصر من أختها ، أفهم حينها لماذا هو منبوذ بين القطيع ، كلما اقترب من أحد الخيول رفسه ، أو دفعه برأسه في بطنه ليبتعد ، يزلزلني أن أراه يتعثر ويسقط ، لكنّي أعود وأنشرح حينما أراه يعتمد على ركبته اليسرى ويقوم.

- ها اخترت أي مُهر فيهم يا نبيل؟

أتعلق بالعارضة الغليظة ، وأهتف بحماس: اخترت المُهر ده يا أمي.

تطوق كتفي بذراعها وتميل لتسألني: أي واحد فيهم يا حبيبي؟

أشير إليه بسبابتي فارداً ذراعي عن آخره وشابًا على أطراف

قدمي :

- اللي واقف لوحده في الآخر.

وتفهـم أمي مَنْ أقصد ، فيبدو عـلى ملامحها التوتر وهي تغمغم : قصدك قمر.

أنط على الأرض فرحاً : اسمه قمر؟ الله اسمه جميل قوي.

- أنت حبيته؟

- قوي يا ماما.

- ليه؟

- علشان هأعرف أكون فارس عليه.

تنظـر إلى شيء ما خلفيّ وتقـول مضطربة: طيب مابلاش المُهر ده اختار واحد تاني.

- أركل الأرض معانداً : لا أنا اخترت ده.

- بابا عايزك تختار مهر قوي، وقمر ضعيف.

- قمر مش ضعيف، قمر طيب.

تحتضن وجهي بين كفيها وتنظر في عيني هامســة: حبيبي

،لمرة لما تكبر هتكون فارس زي بابا و...

تقطع كلامها وتنظر لشيء ما وراء ظهري فألتفت لأجد أبي يسألني بينما يصور كل شيء بكاميرا الفيديو، التي لا تفارقه إلا نادراً :

- ها اخترت أي مهر؟

قُبالة صورة أبي أجلس على كنبة صالون دكتورة "نسرين". ماداً ذراعي لها بالشيك، تلتقطه وتقرأه فترفع حاجبها الأيسر الرفيع كعادتها قبل أن تسألني:

- ايه ده يا نبيل؟

- ده ورث حضرتك يا دكتورة.

تضعه أمامي على الطاولة الزجاجية وتنظر في عيني قائلة:

- انـت عايـز تقطع علاقتـك بيا مش كـده؟ بتديلي ورثي علشان ميبقاش فيه حاجه تربطنا ببعض؟

- لا مقصدش.

- أومال إيه ده؟

- من حقك تاخدي ورثك، على الأقل يبقى تعويض بسـيط عن الأيام الصعبة اللي عشتيها مع بابا.

- تنظر إلى صورة أبي المُعلَّقة وتقول:

- مين قال إني عشت مع مصطفى أيام صعبة؟

- مش كنتي بتشتكي منه دايما؟

تضحــك قائلة : هو فيه ســت مش بتشــتكي من جوزها؟ الست مع جوزها زي اليوم اللي بتعدي عليها الفصول الأربعة، ممكــن تزعل منه وتصالحه وتخانق معاه وتحضنه كل ده في يوم واحد. ثم تســتدرك :

- قــولي يا نبيل، انت عمرك تعرف ان حد بيكره حد يعلق صورته؟

أتحاشى النظر لعينيها العسليتين الثاقبتين وأقول:

- مش عارف.

ترفع رأسها إلى صورة أبي ، فتتأملها كأنها تستعيد ذكرياتها معه:

- يا نبيل انا عشت مع مصطفى أجمل أيام حياتي، مصطفى مكنش بس زميلي في هيئة التدريس كان أخويا قبل ما اتجوزه وحبيبي بعد ما اتجوزته، طول عمره كان انسان محترم وقوي والست تحب الانسان القوي.

- قصدك الناجح؟

- مش شرط يكون الراجل ناجح علشــان يعجب الســت، ده ممكن يكون متشرد وبوهيمي ونموت فيه، الســت تحب الراجــل اللي تحس جنبه إنها ضله، يحميها من حر الدنيا لكن

وقت مـا يتعب بيجي يرتـاح عندها. ومصطفـى كان كده. تعرف! حتى لما كان بيفتكر مامتك الله يرحمها، كنت بشوفه يعيط علشـانها، وكنـت بغير وبضايق بـس غصب عني من جوايا كنت بحترمه.

- يبقى عمرك ما عرفتيه كويس

تستدير وتواجهني:

- مفيـش حـد ممكن يعـرف الراجل اكتر مـن مراته، أنا عارفه مشـكلتك معاه كويس، ومكنتش راضيه عن أسلوبه في معاملتك، وحاولت كتير اخليـه يغير طريقته وانت عارف انا كنت بقف معاك ضـده ازاي، خصوصا في حكاية إصراره على حرمانـك من الصور والفيديوهات الـلي كان بيصورهالك مع أمك، بس واضـح ان ده خلاك تفهم الموقف غلط ، مصطفى كان دايمـا متصور ان الضعف اختيـار، عمره ما اقتنع بحاجة اسمها ضعف ، حتى لما كان بيمرض كان بينزل الشغل وعمره ما استسلم ورقد في السرير، علشان كده طبيعي انه لما يشوف ابنه الوحيد ضعيف ده يخليه دايما مخنوق وعصبي، لكن ده مش معناه ان دي طبيعته.

وتستطرد :

- شيل الفلوس دي يا نبيل وعيب قوي لما تيجي تدبني تمن

والـولي جنبك، أنا دايما بعتبرك ابنــي، رغم إني عارفه انك دايما
رافض ده، علشـــان كده ســـايباك على راحتــك ومتحمله انك
صــدني لاني برده محترمه علاقتك بأمــك الله يرحمها ولنفس
الســبب محبتش أعيش معــاك في الفيلا وجيت هنا شــقتي
ل المعــادي، ووجعني قوي انك تبقى مريــض وعامل حادثة
ول غيبوبــة ولما تخرج ماتقوليش. بـــس على العموم انا مش
هعاتبك لاني مبحبش العتاب.

- يعني مش هتاخدي الشيك.

تحرك رأسَــها يميناً ويساراً في رفض عنيد ، فأفهم أنّه قرارُها النهائيّ، فألتقطه وأغادر.

رغم ذلك ، أعود إلى البنك لأودع لها المبلغ في حسابها.

- 6 -

يحل المســاء فأذهب إلى الســاقية متأخراً كعادتي ، أدخل إلى الممــر المفضي للكواليــس فتتنامى إلى مســامعي أصوات متداخلة للوتريات ، تتردّد عشــوائيًا مع تجريب العازفين لها . أنــا الوحيد الذي لا يجري أي تجربة ، يقول "جميل" عني أن أصابعــي تجيد العزف أبرع مما تجيــد الكتابة ، لكنه يتحرج بذات الوقت أن يصارحني بأنني مجرد مقلد لا مبدع .

أدخــل متوكئًا عــكازي ومتأبطًا الكــمان ، فتقابلني "ريدا" بفســتانها الأحمــر المتوهــج، وكعادتها مغمضــة عينيها وفي حالة هيــام ، تفعل "ريدا" ذلك دائماً حينــما تجرب صوتها ، تلفت نظري لأنني عقدها فأتساءل : لماذا لا أجدها تلمع مثل ذي قبل؟! أليــســت ســعيدة ؟ كونها تدور حــول عنق نجمة مثل "ريدا"، تســتمتع بــدفء الحياة المنســابة فيه؟ وتلمع معــه تحت وهــج الثُّريات وبريق الأضــواء؟ إن كانت كذلك، فلِمَ أراها تبهت يومــاً بعد يوم، ينطفئ لــون الحياة فيها ؟ ربما هــي لم تكن تريد من هذا العالم إلا العزلة ، إلا وشــيش السُّكون ولحن البحر، لم تكن تريد سوى الإحســاس بالأمان بين أحضان محارتها المجعدة ، المحارة التي استكثرنا على خشونتها أن تحتضــن لؤلؤة ناعمة فحرمناهــا منها، لم نفهم أبداً معنى احتيــاج اللؤلؤة للأمان ولا احتياج المحارة للعطاء، فقضينا على

عليهما بالموت ، تماماً مثلما حدث لي ولأمي حرمتنا الحياة من الأمان فانطفأت أرواحنا.

أفيق مــن أفكاري مع قفــزة في الهواء تصحبهــا تصفيقة فرح طفولية من "ريدا"، وأبتســم حينما أسمع صفير "رأفت" ولحيــة "جميــل" المعهودة وهو يمرر أناملــه عرضيًا على كل مفاتيح البيانو، وكذلك ترحيب "حازم" .

- حمد لله على سلامتك يا فنان.

- ايوه بقى ارجع نور الدنيا يا نبيل أفندي.

- تصدق شكلك أحلى في الجبس.

يتجمُعــون من حــولي وتمنحني "ريدا" عناقــاً سريعاً ، ثم تعاوننــي على الجلــوس على كرسي عجــل ، كان "صلاح" قد أحضره بناءً على طلب مني ، لأتمكن من حضور العرض.

أدخــل المسرح مع باقــي أعضاء الفرقة فيرتــجُّ بالتصفيق الحــاد، لكن هذه المرة ليس فقط لمجــرد طلتنا ، بل لظهوري على الكــرسيّ مدفوعــا من "ريــدا"، البعض يعتــبر الضعف تضحيــة، والتضحية من أجل الإبداع بطولة ، لا يفهمون أنني لا أصلــح بطلاً ، فالأبطال لا يموتــون ، الأبطال يتركون دائماً ما يخلدهم في نفوس البشر.

تتخذ الفرقة وضع الاستعداد ويبادر الجمهور بالصمت، فأضع الكمان على كتفي وأستعد، سنعزف لحن "يا مسافر وحدك" لعبد الوهاب.

يبدأ "رأفت" بالعزف على العود مع مزيج رائق للقانون يستمر لنصف دقيقة كاملة، يتوقف بعدها العزف مفسحاً المجالَ لدخول غاية في العذوبة لصوت "ريدا": "يا مسافر وحدك ... يا مسافر وحدك ... وفايتني ... ليه تبعد عني ... ليه تبعد عني ... وتشغلني"، تعود أصابع "رأفت" لتداعب أوتار العود بروعة تفوق الوصف، قبل أن يدخل "جميل" بالبيانو، ويستمر المزيج لنصف دقيقة أخرى: " ودعني ... من غير ما تسلم ... وكفاية قلبي أنا مسلم "، تسكت "ريدا" فيأتي دوري مع ملكة الوتريات، الكمان، أعزف اللحن في اللحظة التي تقول فيها "ريدا" : " دي عينيا دموعها، دموعها بتتكلم" ، فأعجز عن أن أتمالك نفسي، تفيض دموعي حتى أراها تنفرط فوق الكمان وترتطم بالأوتار، حتى لم أعد أرى شيئاً، الأضواء ذابت في بئري عيني تماماً والملامح! لا ملامح، سامحوني، سأسافر وحدي وأدعكم، سامحني يا "رأفت" سامحني يا "جميل" سامحني يا "حازم" سامحيني يا "ريدا" لن أودعكم، لا أجرؤ أن أعذبكم، سامحوني جميعاً، يكفيني من هذه الدنيا أنني لم أنَل منها أيّ شيء، لا نجاح ولا دفء

ولا حــب، ولا شيء! أودعكم بلا ولا كلمة بلا ولا تلميح بلا ولا إشــارة، أودعكم وقلبي ينفطر وجعاً عــلى فراقكم ، أودعكم وجُلُّ ما أتمناه أن تذكروني، أودعكم بعيني ، فقط بعيني .

"دي عينيا دموعها، دموعها بتتكلم" ..

حينما يكون المتبقي لك في هذه الحياة بضع ساعات ، هل يمكنـك أن تنام؟ أهبط بعينين جافاهـما النوم، متوكأ عكازي وقاصدًا الحديقة الخلفية للفيلا، في منتصف طريقي إلى الباب المفـضي إليها ، يعترضني "كامل" بسـؤال اسـتنكاريّ ، لكنه مشمول بالحنان :

- رايح فين يا نبيل يا بني؟

- هزور امي.

يُدير رأسَه يتأمل المطر الذي يزخ من وراء الزجاج العاكس ويقول:

- الدنيا بتمطر استنى لما المطر يقف.

- لا معلش أنا لازم اروحلها حالا؟

- ومستعجل ليه يبني.

- مفيش حد ضامن عمره.

تدورعيناه في محجريهما مندهشاً وغيرَ فاهم لما أقول ، بينما أتجاهــل اعتراضه وأكمل طريقي لأفتح البـاب ، مع انفراجه تهُبُّ في وجهي ريح ممطرة وتصفر في أذني ، أتجاهلها معتمداً

على عكازي وأدفع الباب الجرار لينزلق خلفي، أستدير مُكملاً طريقي غيرَ عابئ بالمطر المنهمر فوق رأسي . العشب الأخضر يرقص من حولي فرحاً بزخات الحياة . المطر بالنسبة لها حياة، أما أنا فحلقي جافٌ ودواخلي متيبسة كأنني روح مُحنَّطة ، ما يهطر بداخلها لا يعدو كونه حمضاً يأكل حشوتها.

أتقدَّم رغم أنَّ الرؤية شبهُ منعدمة ، قدمي السليمة تعرف الطريق من تلقاء نفسها، أدخل البيت الخشبيّ لأجده حيّاً مُبهجاً ، على عكس الشحوب الذي يلف الحياة بالخارج . اللبلاب الأخضر تسلقه ، والأقحوانات البيضاء غزت كل بقعة منه ، يُدهشني أنْ أجد إحداها ذابلة ، لا تستجيب حتى لقطرات المطر التي تبللها، لماذا صرت أرى الموت في كل شيء من حولي، صرت ألحظ حضوره بوضوح غريب؟ أظنه قد بدأ يُبيح لي ببعض من أسراره ، صار يعتبرني منه.

أُغلق باب الحوش من خلفي ، فتنطفئ شدة الريح ويهدأ المطر إلى حد كبير، لا يبقى منه إلا قطرات تنفذ من بين فراغات الشبكة الخشبية ، وريح خفيفة تتسلل لتلعب بأوراق اللبلاب، أبصر شاهد قبر أمي الأبيض يطل برأسه، كأنها تمد عنقها فرحة بلقائي، فأتوجه إليه مباشرة، خمس نقلات توصلني إليه، فألقي بعكازي جانباً ، وأعانقه وأبكي ، بينما أناجيها:

- وحشـــتيني قوي، أنا عارف انك حاســة بيا، وعارف انك هتســـامحيني في اللي هعمله و اللي هقوله، مهما كان صعب عليا أو عليكي، انا مش هقدر اندفن معاكم، مش هقدر أكون معاه في مكان واحد تاني، كفاية اللي حصل لي منه طول حياتي. مقدرش اموت مرتين، أنا اســتنيت الموت كتير علشــان أكون جنبك لكن لما جه بقى مستحيل ده يحصل، سامحيني يا أمي ربنا يعلم قد ايه انا موجوع وقد ايه حاسس بالذنب، لكن ده الحل الوحيد اللي قدامي، ســامحيني وخلي ربنا يسامحني انا عارف ان ربنا بيحبك، ربنـــا بيحب كل الطيبين والصافين اللي زيك، هتوحشيني يا أمي، هتوحشيني قوي.

أفيق من دوخة مشاعري بعد فترة لا أعلمها، تصفو نفسي فأعود إلى المنزل وأمســح عيني وألتقــط الـiPhone ، وأتصل بصلاح :

- ألو يا صلاح ازيك.

يأتيني صوته بعيداً بإشارة ضعيفة متقطعة:

- ازيك يا نبيل عامل إيه النهارده.

- الحمد لله أنا عايز منك طلب مهم.

- اتفضل.

- عايزك تجيب حد يبني قبر جديد، جوه البيت الخشب، جنب قبر أبويا وأمي.

- قبر!؟ ايه اللي حصل؟

- مفيش حاجه حصلت بس يمكن نحتاجه في المستقبل.

- نبيل انت خوفتني في ايه؟

- مفيش حاجه صدقني، بس ياريت لو هتجيب حد تجيبه النهارده وانا بره البيت.

- انت رايح فين؟

- هخرج أخلص شوية حاجات وارجع.

- طيب استنى اجيلك أوصلك طيب.

- لا هسوق بنفسي؟

- تسوق ازاي بحالتك دي؟

- هاخد الJeep الاوتوماتيك؟

- يا نبيل استنى الله يخليك. الجو مطر ومش متحمل.

- لا انا خرجت قبل كده والموضوع كان عادي، متقلقش، هاخلص وأعدي عليك. سلام.

أستجمع نفسي وأدهس بعجلات سيارتي حبات المطر المتقاطرة فوق أسفلت الطرقات لأحطّ بها أمام ورشة "خليل نصيف" ، من نظرة واحدة أعرف أن الرجل لم ينمْ ليلته ، أرى ذلك بادياً في ملامحه الذابلة وعينيه الحمراوين. بينما يقف أمام ماكينة صنع الوتر وقد شدّ بين طرفيها خيط الحرير، يديرها لتهدر برنين مزعج ويبدأ في محاذاة خيط النحاس بأصبعه المرتعش عرضيّاً مع خيط الحرير حتى يتم ضفرهما سويّاً كوتر واحد ، بالأخير يوقف الماكينة ويقص طرفي الوتر، ويعلقه على إصبعه، فأرى النجاح يتدلى منه كخط طويل يضع حدّاً لنهاية مفتوحة.

- صباح الخير يا أرتست

- صباح النور يا فنان.

- هو ده الوتر؟

يفرد جزءاً منه بين أصبعيه المرتعشين مسافة متر، ثم يرفعه أمام بصري متفاخراً: أه هو ايه رأيك؟

أمرر سبابتي عليه وأقول بامتنان : عظيم جداً.

يشده بين يديه بعزيمة تظهر في كرمشة ملامحه وانضغاط أسنانه وتوتر ذراعيه ثم يلين ويقول:

- الوتر ده أشد من وتر الصيد.

- ده بالظبط اللي انا عايزه .

- بس ده مش هيديلك النتيجة اللي انت عايزها وهينشـذ معاك؟

- مهو ده طلبي بالظبط .

ألتقـط الوتر وأخرج ســاهماً دون أن أنطق بكلمة . أركب سيارتي وأثبت سرعتها وأتركها تشق شوارع القاهرة كأنها جواد يفهم ما يجب عليه أن يفعل ، جواد كنت أعرفه يوماً مَّا.

بمرور الوقت يـزداد تعلقي بقمر، كلما أزور المربط أهرع إلى حظيرته فوراً فاسـحبه وأتمشى به ، شعوري بأنْ لي صديقاً يحبني وأحبه وبذات الوقت أسـتطيع أن أفرض سيطرتي عليه يمنحني نشـوة نجاح لم أجربها من قبل، يمنحني كذلك نشوة الحب ، أعتني به كثيراً، أحضر له السكر، وأستمتع برقة شفتيه وهما ينهلانه من بين يدي ، أمســح على جسده بكفي الصغير المبطـط فيصهل صهيـلاً خفيضاً يعبر به عــن حبه لي ، لكني بالمقابل لا أحرز أي تقدم ملموس في تعلم الفروســية . أكتفي دوماً بالتمشي إلى جـواره في المربط دون ركوبه . وكلما حاول أبي إقناعي بامتطـاء أي فرس آخر أرفض وأبكي . فتضطر أمي أن تستـــــلم لرغبتي في النهاية ما يشعل غضب أبي . يمـكنني

من كتفي وينفضني من الغيظ صارخاً:

- لحد أمتى هتفضل جبان؟

- خلاص يا مصطفى سيبه لما يكبر شوية.

يســتجيب لها وفي عينيه يتبدَّد الشَّرَر، لكنه يظل غيرَ راضٍ عــن ارتباطي بقمر، كلما يراه يمتعض ويشــمئز وينعي حظه العاثر الذي أوقعه في هذا الفرس المعيوب الذي لا نفعَ فيه.

- ق ال قمر قال، ده ضلمه وسواد.

يتغاضى عن علاقتي به لفترة قصيرة ، لكن لا تلبث كراهيته له أن تتأجَّج ، حينما أقرر أن امتطيه في لحظة غضب ســببتها معايرته لي بضعفي ، أســقط من على صهوته وتتكسر قدمي كسراً شــديداً يجعلني أطلق صرخة كادت حنجرتي أن تحترق بسببها ، صوت قرقعة قدمي أخافني لدرجة أنني أغشِيَ عليّ. لم يكــن أبي حــاضراً هذا الموقف فظنَّ أنــه طرحني عمداً ، لم يفهــم أبداً طبيعــة العلاقة بيننا ، حينــما امتطيت قمر رقص قلبــه من الفرح وجرى يحتفي بي ويحدر بخيلاء، رافعاً رأسَــه إلى الســماء ، كأنه يريد أن يطولها ، لكن قدمه القصيرة خانته ، ووجدتني أتعثر وأسقط من فوقه لأهبط على ساقي .

- كسر في القصبة والشظية.

لم يكَدْ الطبيب يقولها وهو يشير إلى الأشعُة إلاُ وجَنَ جنون أبي ، رأيت في عينيه جمرًا يتأجّج ، كأنه يعقد النيّة على إلحاق ضرر مـا بقمر، لذلك وبمجرد أن لُفّت قدمي بالجبيرة تحايلتُ على أمـي أن نقيم في المربَـط خوفاً أن يؤذيـه، وافقت على الفور لأنها أرادت أن تحسُّــن حالتي النفسـية ، إنما لا يمضى لنا يومان في الكوخ إلاّ ونســمع ـ ونحن نتناول الغداء ـ جلبة من حوافر الخيل، يتبعها صوت صهيل صارخ يتواصل ، نجفل ونترك الطعام ونخـرج لنتابع الموقف ، تصطدم أبصارنا بعنق قمر وكيف هو عالق بين عارضتين خشـبيتين، وقدمه مبرومة ومحشورة مع رأسه بينهما.

يصيح أبي سائلاً أحدَ العمال: ايه اللي حصل يا سلامة؟

- المهر حاول ينط الحاجز يا دكتور.

- الغبي.

يهبط أبي مُسرعاً إلى الميدان ، بينما تساعدني أمي لنلحق به ، نصل حينما يكون قد تعاون مع العمّال على تخليص عنق قمر وســاقه من بين العارضتين وسدحه على بطنه ، تصيبني حالة ذهول حينما أجده يمد عنقه ويصرخ من الألم، ســاقُه القصيرة مكســورة وملفوفة على نفســها على شــكل حرف "لا". أدير وجهي لأبي مســتنجداً به، فأجده يرفع هوائي هاتفه اللاسلكي

ويجـري اتصالاً مًا: ازيك يا دكتور جلال ... انا بخير الحمد لله
...آه... المهر المعيوب حصله "Compound fracture" ... لا
الموضوع صعـب ومحتاجلك ... طيب هتيجي امتى؟ ... تمام
في انتظارك.

تفجعنـي كلماته فأفلت يد أمي وأرمي العكاز وأجلس إلى جـوار قمر، أدفعه برأسي من رقبته ليقوم ، لكنه يصهل صهيلاً خائراً تصحبه نظرة استجداء، تؤلمني أشد من الطعنة ، أجذب أمي من ملابسها وأترجّاها:

- علشان خاطري يا ماما خلي بابا يعالجه.

تُربِّـتُ عـلى ظهري معلقـة عينيها بعينـي أبي ، يتبادلان نظراتٍ زائغة لا أفهمها، قبل أن يباشر أبي مع العمال نقل قمر إلى العيادة الصغيرة المجاورة لبوكسات الحظيرة .

بعد عدة سـاعات يحـضر زميله الدكتور "جـلال" ومعه أدوات طبية ، يحقنه الدكتور "جلال" بجرعة مخدرة ويُجري له بعد ذلك شـيئاً يسـميه "الأشعة" ، أشـاهده يفحص لوحاً أسودَ باهتمام وتدقيق ، أسمعه يتحدث مع أبي عن"fibula"، تلك الكلمة التي لم أنسَـها، وألحظ عـلى وجهيهما الامتعاض والأسف الشديد ، قبل أن يبدنا في إعادة الساق الملتفة لوضعها الطبيعي في رفـق خبير، يكللانه بتركيب دعامات بلاسـتيكية

لمة ودق مسامير.

بعدها يُشرفان ســوياً مع العُمَّال على ربط قمر من عنقه وبطنه وفخــذه بحمالاتٍ صفراء من الجلــد تتدلى من رافعة حديدية مثبتة في الســقف ، يســمونها "رافعة أندرســون" ، ترفعه الحمالات ليقف مستقيماً ومتعلقاً بها.

ينتهيان فأشاهد أبي يســأل الدكتور "جلال" عاقداً ذراعيه خلف ظهره :

- مفيش أي جديد في أبحاث الزرع؟

وأرى الأسى عــلى وجه الأخير وهو يهز الدعامة ليتأكد من ثباتها فيما يحرك رأسه نفياً .

يمضي يومان وقمر معلق من بطنه ، يعاني ويصهل ويخور، أحاول أن أقدم له في كفي حفنة من الســكر، لكنه يرفض أن يلْعَقَهــا ، يوجعني أن أشــاهد ما تحت عينيه مبللاً بالدموع ، دموعه الصامتة تفطر قلبي ، أفتح شفتيه فإذا بأسنانه مطبقة، حتى الجزر يتشممه ويلفظه ، وفي اليوم الثالث أعرف أنه قد امتنع عن الطعام تماماً، حينما أسمع أبي يقول لأمي وهو يقرأ الجريدة في الحديقة المجاورة للكوخ :

- المهر دخل نوبة اكتئاب.

بقولها ويقلب صفحة الجريدة بشكل روتينيّ ، فيما دمعة تتجمّع في عيني أمي الفيروزيتين.

لا أدري هــل قادتني الســـيارة إلى شركة أبي ، أم قُدتها أنا ، لكنّي وصلت في غضون نصف الساعة .

أدخل "Tri-Vac"، شركة الأدوية التي أنشــأها أبي لتجارة أمصال الحيوانات والطيور والأســماك ، معتمداً على صديقي الصدوق هــذه الأيام ، عُكّازي ، أســتطيع بمعاونته أن أدوس على قدمي المُجبّرة على الأرض ، لكن بحذر شــديد. لم آتِ إلى هنــا ولا مرة منذ افتتاح الشركة ، وبالقطع عزوفي عن الحضور كان يثير جنون أبي ، إحســاســه بأن كل ما يفعله سيضيع رغم أنّ له ولــداً كان يقتله، وبالمقابل يســعدني، على أيه حال قد فات ما فات.

أمام الاستقبال يستوقفني أحدُ موظفي الأمن:

- اهلا وسهلا حضرتك داخل لمين؟

يضايقني أنهم لا يعرفونني لكني أجاوبه :

- أنا صديق شخصي للأستاذ صلاح.

- في ميعاد معاه؟

- لا؟

يرفع سماعة الاتصال الداخلي ليستأذن ، بينما يسألني نقول له مين؟

- نبيل الليثي.

يفهم أنني مالك الشركة ، فيُعيد السمّاعة إلى مكانها ، ويمرر بطاقة المصادقة على الحساس فينفتح الباب الزجاجي بطقّة مميزة ، يدفع لي دفة الباب متراجعاً ومشيراً براحته :

- اتفضل يا أفندم.

أعبر لأمرّ بين مكاتب الإدارة المُقَسّمة إلى مقصوراتٍ زرقاء متجاورة ، يحمِل بابٌ كل منها لافتة معدنية صغيرة، تشير إلى اسم الموظف ومسمى وظيفته. فلا يعيرني أحدُهم أيّ اهتمام. كلهم منشغلون إما بالاستجابة لرنين الهواتف أو استقبال الفاكسات وطباعة الأوراق. عند نهاية الممر الفاصل بين المكاتب الصغيرة يظهر مكتب "صلاح" ذو الواجهة الزجاجية. ألمحه من بين شرائح الستائر المفتوحة ، يدور بالغرفة منهمكاً في مكالمةٍ مّا ، أتقدم وأصل عند باب مكتبه بعدة خطوات قليلة ، لكن قبل أن أمسك بالمقبض تستوقفني اللافتة الزجاجية المثبتة على الباب :

"المدير العام".

شيءٌ ما يحيك في صدري تجاه تلك الجملة ، غِيرة ممزوجة
بـدم لا أجد لهما سـببا ، لكـن لماذا أغارُ وأنـا من تجاهلتُ
كل هذا؟! أكبتُ هذا الإحسـاس وأفتح الباب لأدخل فيتصلب
"صـلاح" في ذهول فور أن يراني ، يُنزل التليفون من على أذنه
وتنفتح عيناه على اتساعهما :

- نبيل!

- مفاجأة مش كده؟

أقولها بينما أستريح على الكرسيّ المخمليّ المشدود ، المستقر
قبالة مكتبه ، وأضع عكازي لأردف في نبرة لا تخلو من حسرة :

- أول مرة اجي الشركة، لدرجة ان الموظفين في الاسـتقبال
معرفونيش.

يتجاوز كلامي ويقول بلهجةٍ فظّة ، تذكرني بلهجة أبي :

- ايه اللي عملته ده يا نبيل انا لسـه قافل مع مدير البنك
ومش مصدق اللي قالهولي.

- قصدك على التحويل.

- اه طبعا، حولت 20 مليون جنيه لمين يا نبيل؟

- مش هقدر أقولك.

- يعنـي ايه مش هتقدر تقولي، أنا في موقف سيء والشركة بتقع.

يقولها ويُهرَع لمكتبه ، فيجمع من على سطحه عدة أوراق منثورة ليعرضها أمامي ، واحدةً تلوَ الأخرى.

- شـايف ده؟ ده فاكس بأمر تعميد مباشر لمدة 3 سـنين لتوريـد أمصال لمـزارع الصفا، وده زيه لمـزارع المراعي، وده لمزارع جرين فارم، وده لميت لاند وده للمصرية السـودانية، وده لمـصر فـوودز، والورقـة دي أمر الشرا الـلي احنا بعتناه لمصنع Pure Complex في إنجلترا، لتركيب نسـب اللقاحات والأمصال، وطبعا شايف المبلغ المكتوب تحت.

ويشـير بإصبعه إلى آخر سـطر في أمر الشراء ، فأتفرَّس في الرقـم بتدقيـق ، 4 مليون وثلاثمائة ألف وخمسـائة وأربعين دولاراً ، بينما هو يواصل شـكواه ، مشيحاً بذراعيه دليلاً على قلة الحيلة:

- انا المفروض اجمع الدولارات دي من السـوق خلال كام يوم، وإلا كل الشغل ده هيضيع، وطبعا رصيد الشركة في البنك لا يسمح بعد اللي انت عملته بدون ما ترجعلي ولا حتى تاخد رأيي.

-رأيك مكنش هيفرق.

يــزداد عصبية فتجحظ عيناه الواســعتان : يعني ايه مش هيفــرق، انت متصــور حجم المجهــود اللي عملناه علشــان نكســب المناقصات دي؟ انا الموظفين عندي مكنوش بيناموا، اشتغلوا ليل نهار علشان يجهزوا العطاءات ويدخلوا العينات لفحص وياخدوا عليها الموافقات والتراخيص.

أمُدُّ يدي له بالشــيك غيرَ مبالٍ بما يقول ، فيخطفه وينظر فيه :

- ايه ده ؟ 5 مليون جنيه؟ اعمل بيهم ايه؟

- دول ليك.

يرمي بالشيك على المكتب وينظر في عيني بتحدٍ ، معتمداً براحتيه على ذراعي الكرسي الذي أجلس عليه :

- نبيل أنا الشــغل ده اهم عندي من أي فلوس؟ ده تعبي وشقايا شهور، وبعدين لو سمعت كلامك وبقيت أناني وبصيت لنفسي بس، كل بيوت الموظفين اللي بره دول هتتقفل، الفلوس دي مــش هتنفعني وانا قاعد في بيتي، احنا قيمتنا في شــغلنا مــش في الفلوس وبــس يا نبيل، قيمتنــا في نجاحنا وتعبنا، في احساسنا واحنا بنشوف أهدافنا بتتحقق ونشوف نفسنا بنكبر واسمنا بيعلا.

- بعت حد الفيلا يبني القبر؟

يكاد يُجَنُّ وهو يضغط أسنانه ويعتدل ليقول عاقداً ذراعيه

- من بدري، ولو سمحت متغيرش الموضوع اللي بكلمك فيه، الفلوس دي لازم ترجع يا نبيل.

- الفلوس دي مبقاش ينفع ترجع يا صلاح.

- يعني ايه مينفعش ترجع؟ و ليه؟

- لأنها مبقتش ملكي.

- مبقتش ملكك أزاي؟ حولت الفلوس لمين يا نبيل؟

- مش لازم تعرف.

- يعني ايه مش لازم اعرف؟

- يعني مش لازم،

- انت عايز تجنني؟

- لا أنا بس حبيت أعرفك.

- انت جيت هنا ليه يا نبيل؟

- علشان أديلك الشيك .

متأكد؟

- أه طبعا

أقولهـا وأتركه لذهولـه، فأعتمد على عـكازي وأغادر. لم أصارحـه برغبتي الدفينة في تحطيم أحد الأصنام التي عذبني أي كثيراً لانصرافي عن عبادتها.

- عمـرك مـا هتبقى بني أدم، الشركـة هتضيع من بعدي يا حبيبك.

لكني أظنه قد لاحظ التشفي الذي كان يقفز من نظراتي.

اكتشـف أن كل الموظفين قد تجمعوا أمـام غرفة مكتبه، صوتـه كان عالياً جداً، لكني لا أهتم، أفتح لنفسي طريقاً بينهم وأغادر لأركب سيارتي وأرحل.

(قد لا نصل)

بمشـــاعِرَ جنينيّةٍ بريئة ، وقلب متخلص من كل أحمال الماضي وترسباته، أقف على بعد خطوات من نافذتي المفتوحة. أراقب الغيوم وهي تحتشـــد لتشـــهد مراســـم الوداع الأخير، موجات متواصلة من الهواء البارد تهُبُّ على وجهي وجسدي. أشـــعر معها كأنني طائرة ورقيّـــة تهفو بحرية في موج الريح . لكنها حرية منقوصـــة فمازال هناك خيط رفيع يربطني بتلك الحياة ، جدران غرفتي الرمادية تحتوي موســـيقى My silent cry المنســـكبة من نظام الصوت المحيط ، ودقات الخامســـة صباحـــاً تعلن عـــن وصـــول رحلتي قبل موعدهـــا ، حتى قناة "Showtime" تـــؤازرني ، تعـــــــــــــــــــــــــــــــرض فيلم "The Fault in Our Stars" ، كل شيء مثاليّ بشـــكل لا أتصوره ، مثاليّ بشكل يُقلِق.

تلاحُـــق أنفاسي الثقيلة يبتلع كل الأصوات من حولي ، لكنه سرعان مـــا يطيش بفعـــل دمدمات الرعـــد المتفجرة في قلب السماء، أنتظر ريثما ينطفئ وميض البرق المتكسر بين الغيوم، فأنقـــل بؤرة تركيزي إلى الوتر المعلق في حلق النافذة البيضاء،

مقدته على هيئة أنشوطة متينة ، أنشوطة كافية للموت.

أتقـدم نحو الوتـر بخطوات واثقة رصينة ، وقلب يشـعر بالتماسـك لأول مرة منذ سكن هذه الضلوع ، للمرة الأولى لا أجد في نفسي أيّ تردد أو حيرة ، بل أشعر أنني ممتلئٌ بالقوة حدُ المغامرة الأقصى ، وربما حدُ الجنون.

هذه هي لحظتي ، لحظة الانفصال الاختياريّ عن الحياة ، واللجوء الاختياريّ أيضاً للموت ، غافلني الموت في ساعة غدْر حـدَّد فيها مهلتي بدقة موظف بيروقراطيّ متصلب ، وسرقت الحيـاة مني نصفها بعبث غانية لعوب ، كأنهما يؤازران أبي في لعبة تحديد مصيري ، لكنني الآن أخدعهم جميعاً ، أهزمهم في لحظة ميلاد جديد ، أتخلى فيها عن بقايا فرصتي من الحياة ، وأهرع فيها إلى الموت دون أن يستعد ، أقطع للأبد سلالة أبي.

لحظة انتحار إنسان ميت.

إنسـان ترك على سريـره وصية تحمـل كل آماله من تلك الحياة ...

"ادفنوني لوحدي في القبر الجديد" ...

أقـترب مـن الوتر المتـدلي ، وأمرِّر رأسي بين فراغه ، أشـد الفتيل حتى يجزّ في رقبتي ، أعتمد على عُكّازي، أعتلي الكرسيّ

الخشبيّ ، أخطو فوق إفريز النافذة، وبلا أتردد أقفز...

أحلق للحظة في عالم حُرّ بلا قيود ، لكنها للأسف أقصر من أن تُحكى، يخطفنـي الوتر من رقبتي بعنفـوان قاتل مأجور، يعـصرني لأعايـن ألَمَ الموت ، قبَسُ الحيـاة ينطفئ في روحي ، أغيب.

يتوقف الزمن .

أعلـق في لحظة من العـدم، قاتمة وصمّاء، لا أشـعر فيها بجسدي، لكنّي موجود، ربما لا أحس بشيء، لكنْ بمقدوري أن أفكر، يبدو أن الموت ما هو إلاّ حالة يعلق فيها الإنسان داخل مسـاحة أبدية مـن العزلة ، لكن يبدو أيضـاً أنه حتى العدم يفنى، فهناك صوت صهيل خائر أسمعه يتنامى بوضوح، ينفث في جسـدي الروح فأفزع له دونما سـبب ، أدلي قدمي لأهبط من سريري ، أكتشـف أنهما صغيران ، وأن اليسرى مكسورة . فأعرف أنني في كوخ المربط ، وأفهم أن ما سـمعته هو صوت قمـر، أتأبط عـكازي وأتوكأ عليه للخروج ، عنـد عتبة الباب أرى الشـمس في البعيد مثل برتقالة منيرة تزلج سماء ثلجية باردة ، وأرى الهواء يتلاعب بأغصان شـجرة الليمون المزروعة أمـام الكوخ ، أنـزل الدرجات الخشـبية في مجاهدة ، متجهًا إلى حظائر الخيول وتحديـدًا حظيرة قمر، أصلها بعد عشرين

ءالله لقدمي فأتوقف مستنداً إلى بابها الخشبيّ القصير، أعلق
مري بأبي الواقف من أمام قمر موليــاً ظهرَه لي، يتأخر عنه
الدكتــور "جلال" بخطــوة وأمي بخطوتين ، أشــاهد الدكتور
جلال" يكلمه، مادًاً له يده بمحقن زجاجيّ كبير:

- حقنة كلوريد صوديوم في الوريد هتريحه يا مصطفى.

إنما أبي يرفض ويقول:

- الخيل عزة وكبرياء يا جلال.

ويُنــزل بندقيته من عــلى كتفه ويصّوب عنقهــا إلى قمر،
يرتجف قلبي حينما أرى أمي تحــوّل وجهها بعيداً، والدكتور
"جلال" يمسك بذراع أبي الأيسر يترجّاه:

- موت رحيم يا مصطفى.

- موت عزيز يا جلال.

يفلت أبي ذراعه ويشــد مشط البندقية ثم يطلق رصاصته
الغــادرة ، فلا يــكاد صفيرُها يتبــدّد حتى يغمر الــدم قمر ،
ويطرطش ملطخاً القشَّ مــن حوله ، يفجعني المنظر فأصرخ
وأنا أحجل نحوه : قمر!

يلتفتون إليّ ويجذبني أبي من ساعدي:

- ابعد يا نبيل انت مش فاهم حاجه .

وتصرخ أمي فيه: الولد شاف المنظر.

ينشـغل مع تأنيبهـا فأفلت يده وأهبط فوق جسـد قمر الحار المتعـرق ، أحاول أن ألملم الدم المتفجر من غرّته بكفي الصغير، لكنْ لا شيء يفيد ، قمر لا يرفع رأسه ولا قوائمه ، قمر مات.

يفور الغضب بداخلي حتى لا يهدأ.

تمـضي اللحظات المتبقية من النهار وأنا في حالة خرس تام. لا أنطـق ولا أحرك سـاكناً ، حتى بـصري لا أحوله عن كرسي الخشب مكسـور السـاق ، المستند إلى جدار غرفتي ، تحاول أمي إخراجي من تلك الحالة بشتى الطرق ، تحضنني ، وتكلمني :

- بابا هيجيبلك مهر زيه يا حبيبي متزعلش.

لكني أبعدها، وألفظها ، أمنحها نظرة لائمة تلمع بالدموع؛ تسـألها لمـاذا تركتيـه يقتلـه؟ وتفهمها فتربت عـلى كتفي تواسـيني، فيزداد غضبي ، أحول وجهـي إلى الكرسي وأضرب قدمه السـليمة بعكازي ، فينكفئ على مسنده .

يحُلُ المساء فأستغل انشغالها بإعداد القهوة لأبي، وأغافلها

لاهرب مـن الكوخ، بداخلي كراهية ممزوجة بخوف، يجعلان من قلبي جمرة تحترق بين أضلعي، لا يمكن أن أعود لأبي مرة أخـرى، أبي قاتل، قتل قمر، قتله لأن قدمه مكســورة، أعتمد على عـكازي وأدفع جســدي بأسرع ما أسـتطيع لأخرج من البـاب الخلفيّ . على عتبته ، ألمح شـاحنة كبـيرة تقف عند الرصيـف تحت مخروط ضوء عامـود الإنارة ، أنتبه أن أبواب صندوقها الخلفي مفتوحـة ، فتراودني فكرة الاختباء بداخلها، اعود فاتردّد قليلاً ثم احسم موقفي وأهرع إليها. حينما أسمع صوت أبي ينادي أمي، أعاني حتى أصلها فأضع عكازي بالداخل، أعتمد بذراعي على سلمها الخلفي، وأدفع جـسدي لينزلق إلى جـوف الصندوق المظلم، وبمجاهــدةٍ أزحف على بطني حتى أختبئ في ركن بعيد منه، أعثر على حاوية للتبن فأتكور خلفها وأستكين . بعد بُرهة أسمع أصواتاً تقترب، وأرى أحدهم يفتح الباب فتســقط بقعة النـور داخل الصنـدوق، مقطوعاً منها ظـلال ممطوطة لعدة رجال، غير أنهـا لا تنال من مكاني ، أنا كامن في مكمني المظلم، صامت، أرتعش.

يزداد خوفي حينما أسـمع أحدهم يقـول : ارفعوا معايا يا رجالة.

وأسمع أنينهم ، وهم يطرحون شيئاً ضخماً داخل الصندوق،

أراهم يغلقون دفتي الباب فيتلاشى النور وأسمع تكّة معدنية، يليهـا هديرٌ أحـس معه بتحرك السـيارة. ترحل بي إلى حيث ينتظرني المجهول ، مع استغراقي في الظلام أبداً في رؤية بعض الملامح تدريجيًا، أكتشف صندوقاً للعدد وعدة حبال لا أعرف فائدتها، أبسـط راحتيّ على أرض الصندوق، وأدفع جسـدي بذراعيّ لأزحف من الوضع جالسـاً إلى البـاب، وهناك تتأكد شكوكي حول الشيء المسجى داخل العربة، أبا وجعي، إنه قمر.

عيونـه المفتوحـة المبرقة ولسـانه المتدلي من بين أسـنانه البيضـاء الغليظـة يخيفاني منـه، لكن حبي له مـازال ينبض بداخـلي بنفس حرارته وحنينـه الأول، أنيخ رأسي فوق رقبته التي انسـحب دفؤها، أستسـلم للحزن فأبـكي، وأنسى العالم وأنام.

- "قـلْ يـا عبادي الذيـن أسْرَفُوا على أنفسِـهم لا تقنطوا مـن رحمة الله إنّ الله يغفِرُ الذنـوب جميعاً إنُّه هو الغفور الرحيم".

أفيق على صوت رائق يرتل تلك الآيات من القرآن الكريم، لا أفهـم أين الموت، لازلـت لم أره . أو ربما هو هكذا . مجرد حالة انتقال لعزلة تصاحبك فيها ذكرياتك، لو كان كذلك يكون الموت نعيماً لسُعداء الحياة وجحيماً لتعسائها. المشكلة أنني

اعـرف صاحب الصوت، أوقن أنني سـمعته مـن قبل، لكنّي لا أحمـل أيَّ ذكريـاتٍ عن تلـك الآية، ربما هـو ملَك أو أحد الصالحـين! لا أظن، فأنا لا أسـتحق الجنـة، لم أقدم في الحياة مهراً لحورها ولا قرباناً لأنهارها.

- "وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون" .

في صعوبة أرفع جفنيْ الملتصقين بمقلتيْ لأستطلع المشهد، قدرتي على الرؤية لازالت مشوشة، لكنّي بمرور الوقت أبدأ في تبيّن ملامح المكان، أنا في غرفة عناية مركزة، عند طرف سريري يجلس صديقي "أيمن" ، وبين يديه مصحف.

أسـتوعب الموقف كاملاً، أنا مازلـتُ على قيد الحياة، لكن كيـف؟ لابد أن هنـاك خللاً ما حدث ومنعنـي من الانتحار، أحاول أن أنبه "أيمن" إلى أنني قد اسـتيقظت، لكني ما زلتُ أفقد السـيطرة على أطرافي، جسدي أثقل من عقلي كأنه يجثم على روحي أو كأنّ الخدر يعيد حقن نفسـه داخل أوردتي من جديد، جرعته تتدفق بين خلاياي مركزة مؤلمة، تسـحبني من الحياة كوحش يشد فريسـته إلى حيث عرينه المظلم الملتف المخيف.

أسـتيقظ على صوت اصطدام جسـمين معدنيـين، تنجم

عنه موجة ارتجاجيْة شــديدة تنفض أضــلاع الصندوق وه،
جســدي، أدرك أن صندوق الشــاحنة قد التحم بآخر، وا،ر
أمســيتُ داخل نفق صغير مــن الجدران الحديديــة، وتد،،
حــواسي فجأة لصوت أنفاس ثقيلة تتردد بصدى مريب، أنو،
فاســحب عكازي وأتراجع لأنكمش خلــف حاوية التبن، ب،ا
أسمع الرجال بالخارج يصيحون:

- اتأكدت من الأقفال كويس؟

- اطمن تربست كل حاجة.

- طيب افتح.

بنهاية حوارهم، ينفجر صوت صرير حاد، كأنْ بوابة تنزاح،
يتبعها دبيب ثقيل، أمد رأسي من خلف حمَالة الحاوية، فأرى
على امتــداد الصندوق عينــين زجاجيتين كبيرتــين تلمعان في
الظــلام، أنكمش في مكاني وأكتم أنفاسي حينما أتبيّن أن القادم
باتجاهــي نمرٌ مخطط ، يرتعش جســدي، مــع تصاعد هدير
زفراتــه، يزأر فاغراً فكّه المريــع، فكأنْ العالم من حولي يتزلزل.
أطبق عينيْ ضاغطاً عليهما بشكل غريزيّ، يتكرر الزئير، ينخلع
قلبي الطفوليّ الرهيف، لا أحتمل الموقف، يصرعني الخوف.

- حمدلله على سلامتك يا نبيل

افتــح عيني ليقابلني وجه صديقي "أيمن" ، أفيق تدريجياً ،اندل لأتبادل معه كلمات قليلة متباعدة، لا تخلو من شكر ،ا ـ حــة مني بوجــوده، وحمد لله منه على شــفائي ، وتنتهي المقدمات بأن يبدأ في تفسـير ما حدث:

- أنا شــفت اللي حصل من بلكونة الفيلا عندي، شــوفتك والت بتقع من الدور التاني، فجريت الحقك، لقيتك غايب عن الوعــي وفيه وتر متعلق في رقبتك، شــلتك انا وكامل وجبناك المستشــفى هنا، طبعا فهمت إنك كنــت بتحاول تنتحر وده صدمني جدا فيك، ليه تعمل كده في نفسك يا نبيل؟

- النهارده كام في الشهر يا أيمن؟

يندهش من سؤالي لكنه يجيب: النهارده 6 يناير.

- يعني انا بقالي هنا 3 أيام ؟

- آه تقريبــا، كنــت بتفوق أوقات قليلــة وترجع تنام تاني بسرعة، الدكتور قال ان رجلك المكسورة انكسرت في مكان تاني والشرايح غيرت مســارها، بس في النهاية عملوا لك عملية فيها والحمد لله تمت على خير، قدر ولطف.

- مش هنفرق.

- يعني ايه؟

- يعني مش هتفرق.

- يا نبيل الجســد ده مش ملك الانســان زي ما هو فاهم، مش من حقك تدمره ولا تأذيه، الجســد ده أمانه ربنا منحها لروحك، ولما تدمره أو تأذيــه تبقى خنت الأمانة دي، وخاين الأمانة عقابه عند ربنا شديد.

- برده مش هتفرق.

- فيــه إيه يا نبيل؟ انــت بتتكلم كده ليــه؟ وليه حاولت تنتحر؟ هو في سر أنا معرفوش؟

أرُدُ بفراغ صبر:

- آه يا أيمن ... في سر متعرفوش ... أنا عندي سرطان في المخ وحالتي متأخرة جدا، تقريبا فاضلي أيام، عرفت بقى انها مش هتفرق؟

يسـكت طويلاً ، محاولاً احتواء صدمته فيما قلته ، ثم يعود فيسألني:

- الخبر ده عرفته امتى؟

- من شهر وزيادة.

يتنهّـد ثم يقول: بص يا نبيل ربنا سـبحانه وتعالى بيقول: "وما تدري نفسٌ ماذا تكسـب غداً وما تدري نفس بأيِّ أرض تموت"، وده دليل ان ربنا اختص نفسـه بساعة الموت، يعني مفيش حد من البشر يقدر يحددها غيره.

- انت بترفض الطب يا أيمن؟

- لا طبعـا، أنا برفض اننا نجعل من الطب قدر يحكم فينا بحكـم ربنا، أنـا مش بقول ان كلام الطـب غلط، بس الطب حـدد ميعاد تقريبي لموتـك، الميعاد ده ممكن يزيد سـنين، وممكن يقل أيام.

- الوقـت فات على الكلام ده يا أيمن أنا أقرب للموت مني للحياة.

- حتـى لو اتفقت معاك ومع الطب في النقطة دي هرجع وأقولك ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال: "لو قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها".

- يعني ايه.

- يعني لو الدنيا دي بتتهد وقصة الحياة بتنتهي الانسـان مطالب بأنه يجتهد ويسـتغل كل لحظـة فيها، مش يضيعها ويحاول يأذي نفسه بانه ينتحر، الأصل في الوجود الحياة مش

الموت يا نبيل، الموت طارئ على طبيعة الكون.

- الحياة بتنتهي بالموت.

- لا انــت فاهم غلط ربنا قال على حياتنا دي الحياة الدنيا لأنها مؤقته، "ياقوم إنما الحياة الدنيا متاع وإنْ الآخرة لهي دار القرار"، مجرد تصفيه للأنفس اللي تــستحق الخلود، ربنا خلقنا للخلود يا نبيل، علشان كده الروح مش بتموت، الروح بتقبض لفترة يعلمها الله، وبنستردها لما يأذن.

تتواصل أسئلتي الواهنة:

- تفتكر الكلام ده حتى لو اقتنعت بيه ممكن يغير حاجة، يزود في عمري يعني؟

- لازم يغــير، اعمل خير واغتنم نعمــة الحياة لآخر لحظة، بس بالحلال واللي يرضي ربنا.

غــيرَ مقتنعٍ أحــاول أن أنهي الحديث: شــكرا يا أيمن على تعبك معايا.

- متقولــش كده يا نبيل احنا جــيران وأصحاب، وليك عليا بــدل الحق ألف، بس المشــكلة كانت فيك انــت، انت دايما عايش جوه نفسك لما بتكلم، بتكلم نفسك، ولما بتفهم، بتفهم

ـسك، ولما حتى بتتوجع، بتتوجع جوه نفسك، سيب مساحة
ـن نفســـك يشـــاركك فيها اللي بيحبوك يـــا نبيل، وادي كمان
ـن نفســـك لغيرك. ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط يا
صديقي.

- بالعكس الـــلي زي لازم الحياة تتخلــص منهم، عارف لما
رجـــلي انكسرت وانا طفل، كنت بـــصرخ من الألم وبصرخ أكتر
من منظرها وانا شايفها مفصوله عن جســمي كله، أنا بالنسبة
للحياة زي الرجل المكســـورة دي، حاجه بتخليها دايما ضعيفة
ولازم تقطعها علشان تفضل قوية.

- وليه متصلحهاش؟

- لانها هتفضل نقطة ضعف.

- الحيـــاة محتاجة الضعيف زي مـــا هي محتاجة القوي يا
نبيل.

- انت اول حد اسمعه يقول الكلام ده ..

الرســـول عليه الصلاة والســـلام قاله ، قال : "إنما تنصرون
وترزقون بضعفائكم"، عارف ليه؟ لأن القـــوة مستمدة من
القـــوة، يفرق بينهم حرف واحد، إنمـــا الضعف بيلين القلوب،
بيحي فيها الرحمة والمودة والحب، والحاجات التلاتة دي هي

اللي بتخلي للحياة معنى وطعم وسـبب، الضعيف مش عا

على الحياة، الضعيف نبضة ليها.

نتبـادل حواراً سـقيماً لفـترة قصيرة يقوم بعدها ليمـ
جبهتي براحته ويتمتم بالمعوذتين فأفهم أنه يرقيني ، أندهش
بشدة ممّا يفعله ، غريب هو.. أيظن أن ثمة شفاء من الموت؟!

برحيله أستدعي الممرضة ، أطلب منها تجميع بطاقات التهنئة المشبوكة في بوكيهات الورد التي تحاصر الجدران، من أقصى اليمين لأقصى اليسار، بمختلف الأذواق والألوان.

- حمد لله على سلامتك يا حبيبي "مامتك التانية" ... لا بأس طهور ان شاء الله، أخوك أيمن ... ألف سلامة عليك يا بيلو، مقامات وحركات، تخيل الواد رأفت البخيل قال لازم نشترك في بوكيه واحد بدل ما نجيب 4 بوكيهات = D ... سلامتك، د.ريماس ... ان شاء الله تقوم بالسلامة، نرمين كمال... ترجعلنا بالسلامة يا نبيل، صلاح ... ربنا يقومك بالسلامة، مدام ليلي... ربنا يحفظك ويسلمك دايما، عمال المربط... تمنياتنا الطيبة بالشفاء العاجل، Tri-vac.

أكثر بطاقة تدهشني هي بطاقة "نرمين"، موظفة البنك، كيف تعرف ما جرى؟ يبدو أن الخبر انتشر على نطاق واسع، أتذكر ملامحها الجميلة وأناقتها فأجدني أبتسم رغماً عني، لكن سرعان ما تتلاشى ابتسامتي حينما أسمع طرقات خفيفة على باب الغرفة، يتبعها دخول من آخر شخص أتوقع حضوره.

- حمد لله على سلامتك يا فنان.

- الله يسلمك يا أرتست اتفضل.

يقــترب بخطوات وليــدة حتى يجلس إلى جــواري و،ه١
نحوي فيحك جبهته توتراً ويقول:

- أنــا أول مرة مبقاش عارف أتكلم، تعرف إن دي أول مرة
افرح أني فشــلت في حاجة، أنــا لو كنت أعرف إنك عايز الو،
علشان كده مكنتش عملته أبداً.

- ولا يهمــك يا ارتســت، لكن انت عرفــت اللي حصل لي
ازاي؟

- أنا شفت الخبر على قناة المحور، "مالك Tri-vac يتعرض
لأزمة صحيــة" وجنبها صورتك، ولما ســألت عليك في الشركة،
دلوني على المستشفى هنا.

- فيك الخير يا ارتسـت.

- طيب انا عارف انك تعبان ومش هطول عليك.

يقولهــا بينما يضــع مبلغاً من المال عــلى الكومود المجاور
لسريري فأستفهم منه: ايه ده؟

- دي فلوس الوتر، طالما فشلت يبقى مش من حقي.

- يعني انت زعلان ان الوتر مشنقنيش!

أقولها بســخرية باهتة فتجــزع ملامحه وينفي: لا طبعا يا

ة.اں، ده كلام تقوله؟!! بس في كل الأحوال انا فشلت.

·انت تعبت واشـتغلت وعملت الـلي عليك، انا اللي وزني
اان أتقل من اللازم، خد الفلوس لو مبسوط إني لسه عايش.

يتردد لكني أومئ له برأسي راضياً، رغم ذلك يستعيد المبلغ
ناصابع مـترددة ويغادر، مع خروجه تدخل الممرضة، وتقترب
مني وتعد إبرة مسكن، تمررها بأنامل خبيرة في وريدي، وعلى
الفور ينسحب النور من حولي ويحل الظلام.

(بعد أيِّ رحيل)

أفيــق لأجدني راقداً على سرير طيــني وأمي إلى جواري. لم أفهــم ما حدث، لكني أعرف بعدها أن أبي اتصل بالسـيرك الذي يبعث له جثة قمر وأن الرجال أسرعوا يفصلون العربتين، ووجــدوني نائماً خلف حاوية التبن، وأن الجميع لم يتصوُّر أنني لازلتُ على قيد الحياة.

- صدمة نفسية مضاعفة أفقدته النطق.

يقولها الطبيب فينهار أبي على مقعده وتضمُّني أمي وهي تسـأله بصوت أقرب إلى الرجاء :

- مضاعفة ازاي؟

- الولد شــاف الحصان للي بيحبــه بينضرب بالنار وبعدها اتعــرض لموقف لو واحــد كبير اتعرضله ممكــن يحصله فيه ســكته قلبيه، احمــدوا ربنا انه اتعرض لحالــة الخماء بس، ده انكتب له عمر جديد.

تمتدُّ حالة الخرس معي لما يزيد عن ثلاثة أشــهر، تضربني فيهــا الكوابيس ونوبات الفزع، ويتنــاوب على حالتي الأطباء

النفسيون، يحقنونني بجرعات من المهدئات ومرخيات العضلات ، ولا أمل ، إلى أن يأتيَ يوم مُمطر، يُخيَّل إلي في صبيحته أنني أسمع صوت صهيل متواصل، فأتوكأ عكازي وأتبعه إلى الحديقة الخلفية، لكني حينما أدخلها لا أجد شيئاً، لا أجد سوى العشب الأخضر الخالي، والمطر المنهمر، أدور حول نفسي، ربما أعثر على الفرس صاحب الصهيل، فينزلق العكاز ويختل توازني، أسقط للخلف فيرتطم رأسي بالأرض المبلولة، أعجز عن القيام فلا أجد سبيلاً إلاّ أنْ أناديَ أمي، أستجمع قواي وأطلق صرخة استغاثة، في البداية لا يخرج صوتي، لكني أحاول مرة بعد أخرى حتى يتحرُر ويتردَّد عالياً بين جنَبَات الحديقة ، تسمعني أمي فتهرع إليَّ جزعة، تهبط على ركبتيها وتحتضنني تحت المطر، تمطرني بقبلات ملهوفة، فأحس بشفتيها الرطبتين ترتجفان على خدي وبملوحة دموعها تلذع شفاهي، أسمع من قلبها رقصة فرح صاخبة ويتسرَّب لي من حضنها دفءٌ مفعم بالأمان، وأسمع همساتها تطرب كمعزوفة للحنان:

- حمد لله على سلامتك يا حبيبي.

تكررها وصوت نهنهة بكائها يداعب أنفاسي، يتلاحق فلا أكاد أفرق بين غزارة دموعها، وغزارة المطر.

.. "اصحى يا حبيبي الساعة 12" ...

يهمس لي هامس بتلك الكلمة، وأسمع ستائر غرفتي تنزاح، فيغمر الوهج كل أرجائها، أفتح عينيَّ فتقابلني ملامح "ربدا" الجميلة، وهــي تقرب وجهها من وجهــي وتطبع على خدي قبلة نديّة ثم تُمسِّــده بخدها وتداعبــه بأنفها، بينما ذراعاها يحتضنان رأسي .

شفتاها الممتلئتان تهمسان برقة:

- كل سنة وانت طيب يا حبيبي ، النهارده عيد جوازنا.

أعانقها بنفس مـستوحشـة وقلب يرتجف، أعتدل لأجلس فيما أنفاسي لاهثة متلاحقة، تشي بأنني لست بخير، تفهم من حالتــي أن ثمة ما يزعجني فتحضــن رأسي في صدرها وتقبلها، تسألني بصوت حنون :

- شفت حلم وحش ولا ايه؟

- آه

- غريبة انت عمرك ما حلمت!

- هو مش بالظبط حلم، هو حقيقة.

تضع وجهها أمام وجهي متسائلة: ازاي؟

أسـكتُ قليلاً حتى تهدأ أنفاسي ثـم أقول: هو ممكن حد يحلم بذكرياته؟

- تقصد إيه؟

- اقصد إني حلمت بكل اللي حصل لي من سنة، من أول ما عرفت إن باقي لي شهرين وأموت لحد ما ...

تقاطعنـي بنبرة يمتزج فيها الضيق بالغيرة : لحد ما قابلتها مش كده؟

- لا لحد ما حاولت انتحر.

تندهش ، يبدو ذلـك في ارتفاع حاجبيها القصيرين ، لكنّها توافقني الرأي: غريبة فعلا ، اشمعنى اللحظة دي تحديدا؟

- مش عارف يمكن علشان الحلم بيبدأ فجأة وينتهي فجأة؟

تزُمُّ شـفتيها وتعقد جبينها غيرَ مقتنعـة، نتبادل الصمت لفترة قصيرة تنهيها دقـة للحادية عشر صباحاً، حينما يقصف العقرب رأسـها، تنظر مهتمة في سـاعة يدها الصغيرة، وأنتبه فجأة إلى أنها ترتدي زيَّ الخروج، تتوتر قليلاً قبل أن تصارحني بارتباك مشوب بتأسف:

- معلـش انا عارفه انك تعبان بس انـا لازم اخرج، عندي

بروفا مهمة جدا على اللحن بتاعك زي ما انت فاهم.

أهُزُّ رأسي : أنْ لا عليكِ ، فتهيم في ملامحي لثوانٍ ثم تقبلني وتقول: بحبك قوي يا حبيبي يا اجمد كومبوزر في مصر.

- وأنا كمان بحبك قوي.

تقبلني ثانيـة وتغادر لتتركني أصـارع ضميري، هذه هي المـرة الأولى التي أكـذب عليها فيها منذ أن تزوجنا، المســألة ليســت مجرد حلم راودني، بل رسالة أرسلتها لي "ريماس" ليلة أمــس ، زوجتي الأولى التي طلقتهــا في لحظة لازلتُ لا أعرف هــل كنتُ ظالماً لها فيهــا أم لا ، فالحقيقة أنني لازلت أحبها، وكأشــد ما يحب الرجال النساء، لكني أعجز عن أن أسامحها، تربيتي القاســية يبُست أقحوانة التسامح التي تولد في مُهجة كل طفل، لكني أعرف جيّداً أنني رغم كل ما حققته من نجاح وتغيير، يرجع لها الفضل فيه، لا أحس بالســعادة، لا أحس بها أبدًا.

أرفع الـiphone ويتوتر إبهامي فوق شاشته قليلاً ، قبل أن أفتح الرسائل لأقرأ رسالتها التي استقبلتُها أمس:

" لا أعرف من أين أبدأ رســالتي، لا أعرف حتى لماذا أبعث لك بهــا، كل ما أعرفه أننــي ضعيفة للحد الذي أشــعر معه بروحي تبرد وتبهت، كأنني كنت أســتمد الحياة منك، أتعرف

لم أدعُ على أحد من قبل لكني دعوت عليك ثم سـامحتك ثم دعوت عليك ثم سـامحتك، ثم ماذا؟ لا أعرف .. لا أعرف أي شيء ... لا أخفيك سراً أننـي طعنت خواطري عنك ألف مرة، لكنها لم تمُتْ ولا مرة، أدركتُ أخيراً أننا لا يمكن أن نقتل الحب بداخلنا، الحب حينما يولد يعيش حتى يشـيخ ويموت وحده، الحب ينبض فينـا حتى بعدما نموت، أو يموت بداخلنا ونحن عـلى قيد الحياة، لذلـك ليـس أمامـي إلاّ أن أتهدَّج حبك، أن أراقص ذكرياتي عنك كل ليلة، وأسقط معها كل صباح" .

- وديت الفلوس فين يا نبيل؟

لا يكف "صلاح" عن تكرار سؤاله، أثناء زيارته لي في المستشفى، بعد محاولتي الفاشلة للانتحار، وأنا كما أنا صامت متجاهل .

- نبيل الشركة بتقع، وانا مرتبط بمواعيد تسليم وعقود وشروط جزائية. اعقل أرجوك.

أتأمل ملامحه بأسى، سترته المكرمشة، شعره الكثيف المبعثر وكرافتته المفكوكة، تخليه عن أناقته بهذا الشكل يعني أنه يمرُّ بأزمة حقيقية لكن ليس بوسعي أن أساعده، مستحيلٌ أن أخبره بما فعلت.

- حضرتك متأكد من قرارك ده يا أستاذ نبيل

ألتقط اسمها، المحفور في المنشور الخشبيّ، الذي يتقدم سطح مكتبها "هناء سراج، جمعية بناء الطفل"، وأرد: أكيد يا مدام هناء .

- بس الفكرة دي غريبة شوية وتنفيذها صعب.

- علشان كده رصدت لها 20 مليون جنيه.

تندهش وتُعدِّل من وضع نظارتها وتفرّ أوراق المشروع ثم تلتقط إحداها لتقرأ منها :

"مشروع إنشاء مدرسة داخلية للأطفال" ...

الهدف : بناء شخصية الطفل، ممكن توضح أكتر ؟

- يعني المدرسة تبني انسان متصالح مع نفسه بيحب الحياة وخالي من العقد والضغوط النفسية، مش مهم يكون شاطر دراسيا أو رياضيا أو فنيا، المهم ننمي عنده الحاجة اللي بيحبها فعلا، مش المكره عليها.

تهُزُّ رأسَها متفهمة و تعود لتستكمل قراءة الشروط :

أن تكفل المدرسة إقامة ومصاريف أسرة الطفل بشرط أن تكون الأسرة بلا أب ، فقط أم وولد وحيد أو بنت وحيدة . مش شايف ان الشرط ده غريبة شوية؟

أرتبك ويخفق قلبي فجأة ، هل تعرف هذه السيدة شيئاً عني ؟! أسارع بتبرير الموقف :

- طبيعي ان الأسر اللي ملهاش أب أو عائل تستحق المساعدة أكتر من غيرها؟ مش كده؟

تستكمل ، رغم انتباهها لارتباكي الواضح: أن تتولى الجمعية

إدارة العمـل الخيري بشـكل كامـل مقابـل تخصيص أجور ورواتب للموظفين من فوائد استثمار المبلغ. تسألني: يعني!

- يعني الرواتب والأجور تندفع من الفوائد، مش من أصل المبلغ.

تتوقـف عن القراءة كأنها تـدرس الموقف ، تجمع الأوراق في الملف ثم تقول: طيب يا أستاذ نبيل أنا هعرض الفكرة على الشئون القانونية وهرد على حضرتك.

- ضروري تردي عليا النهارده ارجوك.

- هجتهد ان شاء الله وأول ما أوصل لقرار هبلغك.

- ممتاز، أول ما هتبلغينـي بالموافقة، هاروح البنك أعمل ارتباط مالي ب20 مليون جنيه لصالح الجمعية.

- اتفقنا.

"رد عليا يا نبيل، بنيت القبر ليه؟ وحاولت تنتحر ليه؟" ...

أسـتفيق مـن ذكرياتي عـلى صوت "صـلاح" وهو يصرخ في وجهـي، إصراري على السـكوت ونظرتي الحائـرة الزائغة يستفزانه كأشـد ما يكون ، أفتح فمي وقد قررت أن أبوح له بالسـر، لكن دخول "ريدا" المفاجـئ ينقذني: فيه ايه؟ بتزعق

-ده ليه يا صلاح؟ انت مفيش فايده فيك؟

يصرخ فيها : لو سمحتي يا ريدا متدخليش في شغلي.

- شغل ايه، نبيل تعبان وانت جاي تزعق له؟

يتشاجران بصوت عالٍ ثم يغادر "صلاح"، تاركاً "ريدا" غارقة في دموعها، تهوي على الكرسيّ المجاور لي ، بينما أحاول مساعدتها بمناولتها علبة المناديل التي بجواري ، دموعها كانت دموع اليأس.

- مفيش فايده فيه يا نبيل، انا خلاص تعبت منه، دايما عصبي ومنفعل مش قادره اتعامل معاه خلاص، استمرارنا مع بعض بقى شبه مستحيل.

بكلماتها تلك أفهم أن العلاقة بينهما قد تدهورت ، كيف حدث هذا في هذا الوقت القصير ؟

- كان نفسي يبقى زيك يا نبيل، يسمعني ويفهمني.

ذبولها وشحوبها يجعلاني أفهم معنىً جديداً في هذه الحياة. المرأة كالزهرة بالفعل تتفتح مع رجل وتذبل مع آخر، الرجل الحقيقيّ يجب أن يكون بستانيّ، فلا الشكل ولا الشخصية القوية ولا النجاح يكفون للحب ، الحب يعيش

فقط بالحنان ، أن تسـمع المرأة أن تفهمها ، أن تمنحها كتفاً
لتضع رأسها عليه.

- 3 -

أخرج من المستشفى بفشل جديد، لكن هذه المرة مع الموت . أخرج غريباً عن نفسي كما عن الحياة، بداخلي إحساس وحشة مغايرٌ تماماً لما عاينته حينما تعرضت للحادث الأول، يشبه ذلك الإحساس الذي ينتاب المرء حينما ينام على سريره ثم يستيقظ ليجد نفسه وسط أرض قفر، لا يعرف ما الذي أتى به هنا ولا أيٌ الاتجاهات يجب عليه أن يسلك ، يخشى حتى من أن يتحرك ، تركني "عبد اللطيف" هذه المرة بلامبالاة حقيقية، لم يلفظ ولا كلمة، فقط رماني بنظرة ملينة بالاحتقار، لكنني لم أهتم! كذلك رد فعل "صلاح" أذهلني، حافظ على سرية الأمر ولم يخبر أيًا من معارفي بحقيقة ما جرى، لكنْ المريب هو أن "عبد اللطيف" أخفى عنه موضوع السرطان ، ألهذه الدرجة هو رجل يفي بوعوده؟

يمُرُّ يومان باردان لي بالمنزل لا أرى فيهما أحداً ولا أسمع أحداً، حتى ملامحي لا أذكرها، أشغل نفسي بالوقوف أمام نافذة غرفتي أو الخروج لشرفتها للجلوس في البرد، من أجل استنشاق هواء الشتاء الذي أعتبره نمير الروح، كثيراً ما تثير رائحة الشتاء في نفسي غربة شديدة، أشعر معها كأنني طيرٌ مهاجر يركب رياح الشمال مسافراً صوبَ ينابيع الدفء، يعاند رغم أنه رأى رفقاء له يسقطون من قبل في شباك تشرين

العنيــدة، زادُه فــارغ إلاّ مــن رغبة ملحــة في الوصول وبين
خفقات وئيدة، ولا يدري هل حين يصل سيجد الثلج قد دا
الزهر وجمد الحَب؟ أم ســتفتح له الــروابي الخضراء ذراعيها
لكنه يثق في أن الهجرة قدره، الرحيل دائماً قدر الغرباء.

في الثامنة من مســاء اليوم الثالــث، وبينما أنا جالس أمام
المدفــأة، أهيم في عــزف مقطوعة "cold" لجــورج ماندير
والكمان تســكب شـجنها على مشــاعري كعطر كئيب، إذ بي
أســمع صوت جرس الفيلا، والمح "كامــل" يفتح فيدخل آخر
إنسان أتوقع حضوره في هذه اللحظة، الدكتورة "ريماس".

يتصلُّب القــوس فوق الوتر، كأنه يندهــش، بينما يُضيّفها
"كامل" وتطلــب منه إعداد قهوة بالبندق وهي تقترب مني،
تحيّيني وتجلس بالمقعد المقابل لي وتعترض بابتسامة بسيطة:

-بطلت عزف ليه؟ هو حضوري طرد الالهام.

أرتبك باحثاً عن رد يُعفيني من الحرج فأقول:

- لا طبعا بس خير في حاجة جدت بخصوص حالتي ؟

تبتسم وتقول:

- لا متقلقش انا مش جايه المرة دي بصفتي طبيبة.

أتأملها كأنني أراها لأول مرة، في ملامحها ابتســامة دهشة منيرة، حاجباها مُقوَّسان مرفوعان عن عينيها، وزاويتا شفتيها معقوفتـــان لأعلى قليلاً ، تبدو مبتســمة دائماً حتى إن لم تكن لذلــك ، أندهش حينــما أراها تفك حجابها وتطلق شــعرها الأســود الناعم على حريته فينفلت ملتفاً حول عنقها الطويل، وبالطبع تقرأ ذلك في قَسَماتي لكنها بدلاً من أن تمنحني تفسيراً مُريحاً ، تسـألني سؤالاً عجيباً :

- ايه رأيك فيا بقى؟

أتوتَّر مع سؤالها المُدهش، وأسأل :

- من ناحية ايه؟

- شكلي .. شخصيتي .. كده؟

أستحي من السؤال لكني لا أجدُ مهرباً من إجابتها :

- انت مهذبة جميلة و..

- تتجوزني؟

لا تكادُ تلفظها إلاّ وأجحَظُ متعجباً ، الحوار سار على وتيرة صاعقة ، أنفاسي أخذت في التلاحق بشــكل جعل من التقاطها أمراً شاقاً.

- إيه مش عاجباك؟

- لا بس مش فاهم ...

- مش فاهم ايه؟ آه قصدك علشـــان يعني أنا اللي جيتا! وعرضت نفسي عليك.

أمســح عرقاً لا أدري كيف نشــع من جبهتي في هذا البر! وأردُ :

- لا بـــس احنا مفيش بينا أي علاقة تخلينا نقرب من بعض للدرجة دي.

- بيتهيء لك، أنا اعرفك من زمان قوي، حضرت لك كتير في الســاقية ومتابعة عزفك كويس، ولو فتحت صفحة "مقامات" على الفيس هتلاقيني عامله اعجاب ومشــاركة لكل اللقطات والمقطوعــات اللي فيهــا عزفك الصولو، كمانجتك بتســحرني لدرجة اني مسجله كل مقطوعاتك على فلاش ميموري وبشغلها على طول في العربية.

أفهــم من كلامها سرُ اهتمامها بي أثنــاء فترة مرضي فأعود لأواجه معها حقيقة موقفي : بس انا هموت؟

تعتدل مائلة بجذعها نحوي وعلى ملامحها يرتسم الاهتمام، رغم لمحة الابتســامة المريحة للنفس التي تملكها :

- هنموت امتى؟

- قريب؟

- أيوه امتى؟

- مش عارف بالظبط لكن بعد أيام.

- طالما مش عارف يبقى المطلوب منك تفكر في اللي تعرفه، فكر في الحياة.

- أنا رهن الموت، الحياة بعيدة عني جدا.

- هي ايه الحياة بالنسبة لك؟ السنين والشهور والأيام والساعات؟ الأوقات يا نبيل ملهاش أي قيمة لو انت انسان معذب، بالعكس لحظة سعادة واحدة ممكن تفضل في ذاكرتك أكتر من عمر كامل من الوجع.

- بس الوجع بيعلم جوانا اكتر.

- احنا اللي بنسمحله بكده، اختياراتنا هي اللي بتخلينا نتوجع، علشان كده حياتنا كلها ممكن تتغير باختيار جديد.

تعجبني نبرتها وأستملح معنى الكلام لكنني لا أقتنع بما تقول، ما ذنب شابة مثلها أن تحمل لقب أرملة في أقل من شهر؟ كما أنَّ هناك شيئاً مريباً لا أفهمه بشأنها: أي مصادفة

تلك التـي قد تجمع بين كونها أحـد معجباتي وبذات الـ
طبيبتــي المعالجة ؟! وبــذكاءٍ يتَّقِدُ في عينيهــا اللامعتين
حيرتي فتجلي لي الغموض الذي يكتنف الحكاية برُمَّتِها:

- أنــا عارفه اللي بيدور جواك وعموما انا اســمي بالكامل
ريماس عبد اللطيف الكردي.

اســمُها يفـسِّر كل شيء، إذن هــي ابنــة الدكتــور "
اللطيـف" ، دموعها وقت إعلانه عن مصــيري لم تكن دمو
طبيبــة متعاطفة مع مريضها البائــس، بل نزيف امرأة يمو
أمامها الرجل الذي تحبه ، لكن هل يملك الحب إحياءَ المو

تُجيــب الأيــام الثلاثة التالية عــن ذلك، تتعــدَّد مقابلاتها
وزياراتها وتصارحني خلالها بحبها على اســتحياء ، رغم غرابة
الأمــر أن تطلب منك فتاة الــزواج منها قبل أن تعلن لك عن
حبها، واقع مقلوب لكنه أعجبني.

- 4 -

بنـم زفافنا في ثمانية وأربعين سـاعة فقط ، وأول ما تطلبه
..ـي "ريماس" هو أن ننتقل للعيـش بالمربط ، وهناك حيث
الكوخ والمدفأة والخضرة والسماء المفتوحة والمطر، أدخل جنة
الخلد.

- أنا بحب المطر قوي يا نبيل ، نفسي تبوسني تحت المطر.

- أبوسك قدام الخيول والعمال؟

- قدام العالم كله.

الحياة بالمربط شاعريّة بصورة أروع ممّا أتصور، والأيام تمُرُّ سريعاً، أسرع كثيراً من المعتاد ، لم تمنعني قدمي المكسورة عن الحركة، أو أشعر بسببها بأي عجز على الإطلاق، روح "ريماس" المنطلقـة لا تكفُّ عن نـثر البهجة من حـولي، كأنها أقحوانة ربيعيـة، أو عطـر أثيريّ يصاحبنـي أينما ذهبـت، يمكن أن توصف كترياق للبهجة ، ابتسامتها رقصة حالمة على موسيقى الفالس، وعناق عينيها السوداوين لعينيّ الخضراوين تعويذة سحر حلال ، حينما قبّلتُ بشفتيّ الفائحتين بالقهوة الفرنسية شفتيها المصبوغتين بالشـوكولاتة ذقتُ نشوة لم أذق مثلها في حياتي ، تفاصيلها توقد في نفسي كل مفردات الرجولة، إحساسي بها ممتع وغامض، كأنني أنسـاب داخل روح أخرى، كأنني في

حالة عناق دائم لا يتوقف، وضمة دافئة في ليلة شتوية باردة

- نبيل انت لازم تنجح، لازم تحقق حلمك وتهزم كل الفشل اللي حاصرك في حياتك.

- أنا مش موهوب يا ريماس، وفي كل الأحوال مش هلحق! وحتى لو لحقت، ايه أصلا فايدة نجاحي وانا ميت؟

أقولهـا بابتســامة تحمل مــرارة، فتمســكني من ذراعي وتشجعني :

- أنت موهوب وأنــا متأكده انك هتقدر تنجح في الحاجة اللي بتحبها.

- قصدك الكمان؟

- بالظبط، أنا عايزاك تفهمني فكرة عمل الكمان.

أحضر الكمان الشرقي وأشرح لها كيف أنْ لها أربعة أوتار. تصدر نغمتين أساسيتين، صول و ري، تصدران أربعَ طبقات، صــول غليظاً وري اعتياديــاً، وصول رفيعــاً، وري رفيعاً حاداً، أربعــة أوتار لم تنجح ألحانها في محو أثر أربعة أصابعَ دائماً ما وشــمت وجهي بالفشــل مع كل صفعة من صفعات أبي . أما فشــلي الخامس ، الحب ، فقد أزالــه حبُّها لي، كما أنبهها أيضاً إلى أنني لســت مبدعاً بل مجردَ مقلد، إنما لا تقتنع تعارضني

بشدة قائلة:

- بالعكس انت موهوب جـدا، ثم تقترح: انا عندي فكرة، إيه رأيك نعمل لحن لحياتك؟

- مش فاهم!

- يعني نعمـل نوته تعبر عن ذكرياتـك، لو ذكرى جميلة تبقـى نغمة صـول غليظ مثلا أو ري حاد، ذكـرى عادية ري اعتيادي، ذكرى مبهجة ري ناعم وكده.

تُنير فكرتهـا بداخلي آلافَ المصابيح، بل تتوهّج كشـمس نيسـان ، إنها عبقرية بحق ، لماذا لا أسـجل لحظات حياتي في شـكل نوتة موسـيقية؟ أستجيب لها بشـغف فأحضر كراس الموسـيقى والأقلام، وأبدأ في اسـتدعاء ذكرياتي حُلوها بمرها، أدوّن السـلالم الموسيقية والعلامات ، أصلح وأعدل ، بينما هي بجانبـي تدعمني ، كتبتُ أغلب اللحن ونحن جالسـان أمام المدفأة متدثريـن بغطاء واحد، وممتزجـين في روح واحدة ، يبلل صوت المطر بالخارج حكايتنا بطراوة العشق.

ثـلاثُ ليـالٍ تمر كأمتـع ما تكـون الحيـاة ، وتنقضي بأن أضـعَ علامة الـ"ري" الأخيرة وأتوقـف، تتلاقى أعيننا لحظتها فتعانقني وتقول:

- مبروك يا حبيبي، هتسمي اللحن ايه؟

أفكر ثم أجيب بشكل عفويّ : هسميه "قبل الرحيل".

ولأول مرة تبكي ، تضع كامل رأسي في حضنها فتنهار وترتجف .

- ربنا يخليك ليا وميحرمنيش منك أبدا يا حبيبي .

أعزف لها اللحن بالكمان مرة والبيانو مرة ، فيخرج كئيباً حزيناً في بدايته ثم سرعان ما يصطخب كموج البحر قبل أن يتهادى كنسمة حانية تداعب خدها ، أنتبه أن نغماته تثير في النفس خليطاً مدهشاً من العواطف الإنسانية ، حينما أرى خدّها يتلون مع الإيقاع من شدة تأثرها به.

يُذهلها جمالُ اللحن ورقته وعذوبته، تقسم لي أنه رهيب وأنها لا تجاملني، وتصمم أن ترفعه بنفسها على Soundcloud وتجتهد في مشاركته على مواقع التواصل الاجتماعيّ ، وخلافاً لكل التوقعات ينتشر اللحن بصورة غير مسبوقة، يتفشى في الشوارع وبين الشباب يتردّد من سماعات الرأس وعبر الحاسبات والأجهزة الذكية، ينساب إلى القلوب قبل الآذان، ثلاثُ دقائقَ وخمسُ ثوانٍ فقط تحقق في أيام مائتي ألف متابعة ، يحتشد المتابعون على حسابي في تويتر وأحقق نجاحاً مُبهراً، الكل يثيره الفضول لسماع مقطوعة

العازف الذي سجل حياته في نوتة موسيقية، رأيت فتاة تبكي في بدايته وتتوتر في منتصفه ثم تبتسم ودمعتها لازالت لم تجف في نهايته ، إعجازٌ موسيقيٌ مثير للمشاعر كما قالت "ريدا" وهي تهنئني عليه في التليفون ، على غيرة ملحوظة من "ريماس" التي كانت تعلم جيِّداً أنَّ هناك نبضة في قلبي لا تمتزج بنبضاتها، نبضة لا معنى لها إلاَّ أنَّ هناك من تشاركها قدراً من مشاعري، حتى وإن كان ضئيلاً، وبالطبع لا يحتاج الأمر لذكاء أن تفهم أنها ريدا؟

لكنْ كلُّ هذا النجاح وهذه السعادة تنتهي حينما يحين موعد الموت ، وأسمع أجراسه تدق فوق أرقام رزنامة التقويم، بقي من الزمن يومان فقط ... ثمانية وأربعون ساعة.

الحبُّ يغير طعم الأشــياء، فحتى لو كنا على شــفا الموت، يمنحنــا بهجة اســتقبال الرحيل، لا شــك أن فقدان من نحب يكون قاســياً، لكــنْ يقيننا بأنْ هناك من ســيوافينا إلى الضفة الأخرى من الوجود، يمنحنا قناديلَ من أملٍ ينادي باللقاء. كلُّنا سنرحل في النهاية، المهم أن نتعارف أرواحُنا وسط ضياع أعمى من أن تحدُّه المصادفات.

أمــوتُ غداً، تلك هي آخر النهايات التي ترفض أن تُســلم لواقعي المهزوم، لكني ســأجبرها على رغبــة مني هذه المرة، قــررت أن أنفض كل علائق الذكرى المتشــبثة بثوب حكايتي، قبل أن تخط سطرها الأخير. قررت أن أعرف محتوى الوديعة.

أدخــل HSBC فتســتقبلني "نرمين" ببشاشــتها المعتادة، تعرَّفــتُ عليهــا أكــثرَ في فترة مــرضي، زارتني عــدة مرات في المستشفى ونشــأت بيننا صداقة هادئة راقية، كذلك حضرت عقد قِرَاني على "ريماس".

تندهش حينما أطلب منها فتح الوديعة :

- أخيرا قررت؟

أبتســم وأومئُ لها برأسي : أن نعــم ، فتعاونني على إنهاء

الإجـراءات، ثم تقودني إلى مسـتودع الخزانات، تدس المفتاح لي خزانتـي الخاصة، وتنسـحب لتغادر في خطـوات رصينة، تركني لأواجه الوديعة مرتعشـاً كالجَرْو المُبتلّ، ما الذي تركته لي أيهـا الرجل القاسي؟ أتمنى من كل قلبي أن تُقيم ما كسرته مـن أركاني قبل أن يتولى المـوت هدمها من جديد، على الأقل ســاغادر هذا العالم من دون مُضغة الكراهية التي تخثرت في قلبي تجاهك.

أدير المفتاح وأفتح باب الخزانة الصغيرة، أسحب صندوقها الثقيـل وأحملـه لأضعـه على الطاولـة الممدودة في وسـط المستودع، أكشـف عنها الغطاء في بطءٍ متوجساً ، ولا أصدق ما أراه ، يصعقني المحتوى لدرجة أن أنتفض، لا أتصور أنه قد ترك لي هذا الشيء، بالتحديد، المسـدس "الجلوك" ومعه ورقة مطويـة ، تتدافع دقات قلبي فأشـعر به يتضارب بين أضلعي كأنه مطرقة طائشـة، أحمل المسـدس بيد مرتعشـة وعينين متصلبتين من الذعر، ففي تلك القطعة الصغيرة تسـكن أبشع ذكرياتي.

- ركز في الشاخص يا نبيل.

يقولها أبي فيما يحـرك ذراعي الأيمن القابض على الطبنجة إلى اليمـين قليـلاً ، ويطبق أصابع يدي اليـسرى فوق اليمنى

القابضة على السلاح.

- اكتم نفسك واضرب أسفل منتصف الهدف.

أطاوعه وأفعل ما يريد فتنطلق الرصاصة بدويّ هائل وأندفع للخلف، لكنّي لا أصيب الهدف، ينخلع كتفي فيؤلمني وأشاهد الاستياء يلوح على وجهه، وهو يعنفني .

- هو انت مفيش فايدة فيك؟

وقتها كنتُ في الرابعة عشر وكنت أشعر بضياع كبير، موت أمي كان بمثابة فقدان شامل للأمان، لم أكن أحس بأي استقرار نفسيّ أو ارتياح من أي نوع، دائماً خائف ومضطرب، أتردد قبل أن أفعل أيّ شيء، مهما كان بسيطاً وعادياً، خوفًا من رد فعل أبي العنيف، وكأنْ منسوب الاستقرار في شخصيتي اضمحلّ إلى حَدّه الأدنى ، فصارت مثل لجّة رقيقة ، مجرْد هبوب خفيف لنسمة رقيقة كفيلٌ بأن يبعثر استقرارَها النفسيّ .

لكنْ أبي - وكعادته - لم يقبل بفشلي ، هو لم يكن يستسلم.

يعود فيصطحبني إلى ميدان الرماية بالمربط مرة أخرى، يجتهد في تدريبي ربما يراني أتحسّن قليلاً ، على الأقل أستطيع إصابة جزء من الشاخص ، حتى وإن كان على هامش البُقعة السوداء.

يقـرر بعدهـا تدريبي عـلى التعامل مع السـلاح ، فكُه ، تركيبه ، تنظيفه، بالإضافة لإخراجه من جيبي بشكل مدروس وخاطـف للدفـاع عن نفسي ضـدَّ أي اعتـداء مفاجئ . وفي صبيحة يوم بارد ، يقتادني من ذراعي إلى الورشـة المبنية على هيئة عنبر من الصاج ، مقام على مسافة خمسـمائة متراً تقريباً من الكوخ، ندخلها فإذا بها متخمة بالعدد والأدوات الحديدية الغليظة، مناشير ومطارق وقطّاعات وحفّارات بمختلف الأنواع والمقاسـات، يشـغلني انهماك العمال في إصلاح جرّار زراعيّ عند باب العنبر الخلفيّ، كيف يشـحمونه ويجربونه ويملؤون فنطاسـه بالسـولار، وكيف تصعد منه رائحة مثيرة للغثيان، هي خليط بين الزيت والشـحم والسـولار، أتسـاءل : ما الذي يدفعهم للقبول بهذا العمل المقرف؟ ربما هم فقراء!

نصل إلى طاولة خشـبيَّة خشـنة تقف على أربعة أرجل في المنتصف تماماً من العنبر، تحتها ينحني أبي ويسـحب صندوقاً خشبياً ثقيلاً، ألحظ على أضلعه حروفاً إنجليزية متناثرة تشكل أسـماءَ عِدّة لـدولٍ أجنبية ، يبدأ في فـك مُفصّلاته الحديدية ثم يسـتخرج منه قطعة سلاح صغيرة، ترقد وسط العديد من القطع الأخرى الأكبر، يزرعها أمامي على الطاولة بعنف يحدث دويّاً، ويحذرني مشيراً بإصبعه:

- انا مش دايم لك، وانت غني ولوحدك وده هيطمع فيك

الناس، علشان كده لازم تتعلم ازاي تحمي نفسك، فاهم؟

- بس احنا عندنا حرس.

لا أكادُ أقولها إلاّ ويشـــتعل غضبُه ، أرى في عينيه الاحمرار والجحـــوظ وهو يجزّ على أســـنانه ، ويقرّعنـــي بصوت أقرب للفحيح :

- انت عايز تعيش طول عمرك معتمد على غيرك؟

أنكمش وأطرق برأسي محاولاً حبسَ دمعة انكســـار تتكوّن حول حوافّ عيني، حينها يرفع رأسي براحته مشيراً للسلاح :

- بص هنا، ده ســـلاح جلـــوك 9 مم نمســـاوي موديل 22، هاعلمـــك ازاي تفكه وتركبه، ركز معايـــا في كل كلمة هقولها علشان هســـألك لما أخلص، وإياك متعرفش تجاوب أو تغلط، فاهم.

أومِئُ له برأسي واجماً ، بينما يبدأ في الشرح ، يشير بأصبعه إلى اليد ويقول: دي القبضة اللي فيها خزنة المـــدس، وبيتقال عليه مسكه برده، ودي الســـاطه اللي هي الماســـورة والسِنّ اللي فوقها ده ســـن نملة الدبانة، وينقل إصبعه إلى الأجزاء ويقول: وده المشط. فاهمني؟

- فاهم.

- أول حاجه هنخلع الخزنة اللي فيها الخرطوش.

يفك قِفْلها الصغير، ويسحبها للأسفل، ثم يضعها على الطاولة ويستكمل:

- بعد كده هنتأكد ان مفيش خرطوشة بايته في السبطانة.

يشدّ الأجزاء للخلف والأمام سريعاً فتصدر حكّة معدنيّة عنيفة، وتنفر منها طلقة تتدحرج على الطاولة لتسقط بعيداً ، يتجاهلها ويحذرني بصوت أجش ، ونظرة حادة :

- الخرطوشه اللي في السبطانة دي أخطر حاجه. لازم تتأكد إن المسدس فاضي، مركز معايا؟

- آه.

- بعد كده نعلق الزناد.

يعيد الزناد للخلف حتى يثبُتَ على وضعه، يفتح قفل التفكيك الصغير عند زاوية اليد، قبل أن يسحب أجزاء السلاح بسبابته وإبهامه للخلف قليلاً ثم للأمام بقوة فينخلع المشط تماماً من القبضة ، يمسك المسدس ، بعد أن صار قطعتين منفصلتين ، على راحتيه ويعرضهما لي :

- كده طلعنا المشط بره، وقلب المسدس بقى مكشوف

قدامنا، هعملها قدامك تاني.

يركبهـما ويعيد الكرّة، ثم ينتقل للمرحلـة التالية ، يخرج السوسته والماسورة فتصير كل قطعة من المسدس على حده ، يفرد القطع على الطاولة من أمامي ويقول :

- كده المســدس اتفكك كله، ركّــز بقى معايا ازاي هنركبه عمليه عكســية تمامًا، خطوة بخطوة، الــلي انتهينا بيه هنبدأ بيه.

يُعيد كل شيء إلى سيرته الأولى، يُركّب الماسورة والسوسته، يعشــق المشــط في مجراه ويســحبه للخلف سريعاً ليتشبث بمكانــه ، يحرر الزنــاد ، ثم يعيد الخزانــة إلى مكانها، ويطبق براحته على قاعدهــا لتبيت داخل القبضة تماماً، تثبُت فيلقم الماسورة بخرطوشة جديدة ، يستخرجها من علبة تشبه علب الثقاب الكبيرة ، ويقول:

- انت فهمت انا عملت ايه؟

أجيبه متعجلا: آه

- طيب قولي أنا عملت ايه.

- عملت العكس.

وأســمْع له ما أحفظــه مِمّا رأيتُه يفعله فيُومِئ لي برأســه كنايةً عن الرضا، قبل أن يمســك بكفي السمين ويضع السلاح في بطن راحتي .

- طيب فكك السلاح بنفسك.

أتبادل النظر بينَه وبين الســلاح المســتقِرّ في كفّي، فينتبه لنظرتي الزائغة المضطربة ، فيحذرني:

- ركز وفوق لنفسك، امسك السلاح كويس.

أُبرِّق عيني لأثبت له أنني منتبه وأنفذ . أفتح قفل الخزانة، أنزعها بارتباك، فيعزز فعلتي: كويس شاطر كمل .

أستشعِرُ انقباضاً شديداً في أوعيتي الدمويّة، كأنْ شيئاً مُا يُهيِّج جهازي العصبيّ، أتأهّب فأضع سبابتي على الزناد لتثبيته للخلف ، لكنه يستوقفني بكفه صارخاً:

- استنى.

أفهم أنْ ثمّة خطأ فيما أفعله، لكن بعد فوات الأوان، يواصل إصبعي الخائف تشبثه بالزناد ويتراجع مُطلقاً الرصاص، ينفجر الدم أمام عينيّ فيســتحيل العــالم كلُّه إلى بقعةٍ حمراءَ لزجة، تلطخ سطحاً زجاجيّاً ، ما هو إلا عدسة عيني ، أُبصر من خلف الأحمر القاني العُمّال ظلالاً سوداءَ تُهرَع إلينا وأراهم يحملون

أبي ويجـرون به بعيداً ، يذوبـون جميعاً في الدم وأنا متصل .
في مكاني مشدوهاً.

يُشَلُّ كفُّهُ الأيمن.

تنفُـذ الرصاصة الطائشــة منــه، فتكسر عظامــه وتقطع شعيرات عصب الـMedian ، فلا تنجح العمليات الجراحيَّة في وصل أطرافها لدقتها الشديدة.

وبالطبع لم يكن الأمرُ سهلاً ، الشلل بالنسبة لرجل اعتاد أن يفعل كلَّ شيء بيديه لا يختلف كثيراً عن الموت.

أمرٌ بحالة نفســية ترعبني، أعيش فترة كئيبة يسـيطر عليّ فيها هاجسٌ مُخيف، أنه يتربص بي، ويتحيَّن الفرصة المناســبة لإيــذائي، أعاني ليـاليَ طويلة من الأرق خوفـاً أن يهاجمني أو يقتلني، لكنه لا يفعل، بل أفاجأ به يتدرب على استخدام يده اليــسرى في كل شيء، يأكل بها، يشرب بها، يلعب كرة المضرب، يُصلح الأشــياء التالفــة بالمنزل، لدرجــة أن أراه ـ قبل أن أتمّ الســادســة عشر ـ يرســم شــكلاً دقيقاً بأقلام التحبير الرابيدو لجهاز طبي يُستخدَم في علاج الخيول، ويظلله بمنتهى المهارة.

لحظتَها فقط تبدأ الألوان في صبغ أسْوَد حياتي، قليلاً.

أنخلع من ذكرياتي عن الســلاح كمســمار اقتلعته كمّاشة،

أمدُّ يدي فألتقط الورقة المطويَّة وأفردها لأقرأها :

- "الوقت اللي هتفتح فيه الوديعة هكون في ذمة الله، أنا عارف انك بتكرهني، وأنك عمـرك ما هتفهم اني كنت بعمل كل ده علشـان مصلحتك. وعـارف ان كل محاولاتي معاك في حياتي فشلت، علشان كده هحاول اصلحك لحظة موتي، وبعد موتي، مش هيأس حتى وأنا ميت.

الفرس "كحيل" عجز ومرض، كل يوم بيمر عليه بيتألم أكتر من اللي قبله، حلّه الوحيد إنك ترحمه وتنهي حياته، وبنفس المسـدس اللي صبتني بيه زمان، فاكر المسـدس ده؟ هي دي الطريقـة الوحيدة اللي هتخلصك من كل مركباتك النفسـية، الوقت اللي هتقتل فيـه الفرس هتوصلك كل الصور ومقاطع الفيديـو اللي فيها ذكرياتك مع أمك واللي كنت برفض اخليك تشـوفها علشان شخصيتك تسـتقل. لكن لو اتأخرت في فتح الوديعـة والفرس مات، أو مقدرتش تنفذ وصيتي دي لضعف في نفسك أو كراهية منك ليا، الملفات دي مش هتوصلك أبدا، وهكون فشلت في اصلاحك للأبد" .

تنتهي الرسالة فأفرمها بين قبْضتي وأعتصر قبْضة المسدس ، صدري يصعد ويهبط من التوتر، أرفض أن أطيعه أكره سطوته وصلفه، وبذات الوقت أشـتاق لرؤيـة مقاطعي القديمة مع

أمي، بالأخير يهزمني الشـغف وتهزمني دفقات الحنين ، أدُسُّ المســدس في ظهري، بين القميص والبنطال، وأستره بالجاكيت وأغادر فوراً إلى المربط.

- العمر المديد ليك يا أسـتاذ نبيــل الفرس مات من يجي سنة.

يصدمني عم "سـلامة" بالخبر وأنا أقـف أمامه في حظيرة البوكســات، كأنه يلكمني، أسافر في ملامِحه المتشققة القديمة كالتانه، أفهم أنه يـستشعر معاناتي لكنه يحتار فيما يجب عليه أن يقول ، يُؤثر الصمت حتى يترك لي الفرصة للتفكير.

أعودُ وأساله بصوتٍ مختنق:

- طيب مفيش فرس تاني عجز وبيتوجع من المرض؟

يشيح بذراعه بعيداً ناحية الميدان ويطمئنني :

- الخيــول كلهـا بخير والحمد لله وبترمــح زي الرهوان في الميدان اطمن على الخيل يا أســتاذ "نبيــل" أنا حافظ وصية الغالي، ومخلي بالي منهم، هو الأستاذ صلاح مش بيبلغ حضرتك ولا إيه؟ ده احنا لــه مطلعين شهادة نسب للمُهر بطران من كام يوم؟!

لا يعنيني كلُّ ما يقوله ، ينطفئ صوته من مســامعي كأنَّ

أفكاري تتنصُل منه، فقط أفكر كيف أنفذ تلك الوصية وكيف يمكن أن أصل إلى الملفُات، لابد أنه قد تركها مع أحد من معارفنا المقربين. لو كان كذلك فسيكون من السهل الوصول لها فهم قليلون، أبي خسر الكثير من أصدقائه بسبب تزمته واهتمامه بدقة المواعيد وكراهيته لكلمة "معلش".

أصرف "سلامه" بهدوء، لا يعكس التوتر الذي يمور بداخلي، فيطيعني وينصرف من الحظيرة إلى ناحية الميدان، أسمع صيحاته وصفيره المعتاد للخيول، فأتبعه إلى الخارج، حيث الهواء الطلق والمروج الزاهية والسماء المفتوحة، أتصل بصلاح:

- الو ... ازيك يا صلاح ... الوالد ما سابش معاك حاجة ليا وطلب منك تدديهالي بعد ما يموت؟

- ايه الكلام الغريب ده يا نبيل؟

- طيب مطلبش منك أي حاجة تانية؟

- كل اللي طلبه مني أني احجز لك عند الدكتور عبد اللطيف كل سنة علشان يعملك تحليل شامل، كان عارف إنك بتسمع كلامي وبتثق فيا.

- يعني مجبش سيرة الفرس "كحيل" خالص؟

- كحيل!!!

بــدا أنه لا يعرف عــن أي شيء أتحدث، مــا يعني أنّ أبي لم يــترك الفيديوهات والصور عنده . فأيــن تركها إذن ؟ أكاد أجَــنُّ وأنا أتمــشى في المربط ، ترافقني أصــواتُ حوافر الجياد وهي تركض بانطلاق في باحة الميدان الواســعة، بداخلي حالة فوران مخلوطة بغمّ ، حتى مجرد التفكير يعذبني، لكنّي رغم ذلــك أصل إلى قرار سريع فأســتقلُّ ســيارتي متجهاً إلى عيادة الدكتور "جلال"، أســتحلفه بكل غــالٍ عنده أن يخبرني بمكان تلك الأغراض لكن ردُّه يأتي مُحبطًا:

- يا نبيل يا ابني ان لو حاجه زي دي عندي كنت هديهالك فورا، هخبيها ليه؟

بائسًــا وحزيناً أتركه لأذهب إلى الدكتــورة "نسرين"، إنَّما تنفي هي الأخرى معرفتها بمكان الملفَّات :

- انــا حاولت مع مصطفى كتير انــه يديني الحاجات دي وكان دايما بيرفض، أخر مرة قالي انه حرقها.

تنتابني حالة يأس وشعور قاتل بالهزيمة ، طرقتُ كل السبل ولم أصل لشيء، ليســت عند أي من أصدقائه أو معارفنا فأين توجد؟ أجرى وســط ممرّات ذاكرتي المحفوفة بالأشواك ، لعلّي أصلُ إلى إجابة ، لكنني أجدها مثل متاهة معقدة ، اكتشــافها يستغلق عليّ أكثر كلما أوغلتُ أكثر، الحل الوحيد هو أن أحلّق

لوقفها، مشاهدة ذكرياتنا من بعيد تمنحنا السيطرة عليها دون أن نغرق في سـطوة التفاصيـل، التفاصيل دائماً مـا تجرُنا إلى دوّامات الوَجَع، تسـقينا من لُجَجها لنعطشَ أكثر ونتجرُعَ أكثر لنخضعُ لها أكثرَ وأكثر.

"كذبـك حلو، يا أول كذبة صدقتها في حياتي، كذبك حلو يا أحلى كذبة واخترتها بذاتي" ...

تنتزعني نغمة اتصال "ريماس" من أفكاري، لا زلتُ لا أدري لماذا تحب أغنية ميادة بليـبس تلك ، أتمالك أعصابي وأرد :

- ازيك يا حبيبتي.

- ازاي يا حبيبي، انت فين؟

- أنا خارج من عند د نسرين.

- خير؟

- كنت بزورها.

- طيـب انا كنت قلقانه عليـك لأنك مقولتليش انت رايح فين، كنت فاكراك في المربط .

المربط .. نعم ، كل دهاليز ذاكرتي تُفضي إليه ، تســطع في ذهني وَمْضة خاطفة عن غرفته الخاصًة في الكوخ وكيف كان

حريصـاً على تأمينها، كان يضع لهـا كاميرا مراقبة خاصَّة فوق الباب، لابُدَّ أنها مسـتودعٌ هامٌ لأشيائه الخاصَّة . أنهي المكالمة وأعـود إلى المربط سريعاً فأقتحمها . أندهـش حينما أجدُها مرتبة أنيقـة كأنه لازال يعتني بهـا . أي رجل كان؟ أشرَع في التفتيـش في الخزانات والدواليب بعبث وفوضى كبيرة ، لكنّي لا أجـد شـيئاً، أزداد عصبية، فأجلب مطفـأة الحريق وأكسر خزانـة المكتـب، أعثر على كامـيرا الفيديو اليدويـة الصغيرة بداخله، يرقص قلبي طرباً لمرآها، التقطها وأفتح منفذ شريحة الذاكـرة سريعاً ، لكنْ يخيب أمـلي حينما أجدُه فارغاً لا شيء به، أضغط زرّ باب الكاميرا فينفرج بانسـيابيّة ، وأيضاً لا أجدُ به الشريط الصغير، لا شيءَ بالكاميرا، لا شيءَ البتّة.

يشـتعل الغضب بداخلي حتى تنفلتَ أعصابي تماماً ، هذا الرجل لم يكنْ إنسـاناً بل شـيطاناً حقيقيّاً ، أنتزع السـلاح من ظهـري وأصوِّبه إلى صورته الصغيرة، المُعَلَّقَة في منتصف جدار الغرفة الخشبية، وبنفسٍ مُغتاظةٍ وأصابعَ متوترةٍ أضغط الزناد. لكن الرصاصة لا تنطلق ، أضغط بمنتهى القوة ولا تنطلق، هذا السـلاح الغبيّ يأبى أن يستجيب كأنه يتعاطف مع سيد قديم امتلكـه ذات قسـوة، أنفضه في يدي وأفـضُ الخزانة فأتلقى مفاجـأة جديدة ، الخزانة خاليـة من الخرطوش، ليس بها ولا طلقة واحـدة، كيف كان يتوقع أن أنهـي حياة الفرس إذن؟

أشدُّ أجزاء المسدس بعنف وغضب، ومن أمام عيني ينفلت من بيت الماسورة آخِرُ شيء أتوقعه ، شريحة ذاكرة USB صغيرة، تطير في الهواء حرة مندفعة، أشخص ببصري مُتابعاً مسارَها كأنه مشهد يُعْرَضُ بالبطيء، تسقط على المكتب متقافزة فوق سطحه لثوانٍ وبالأخير تقع على الأرض، أزحَفُ تحت المكتب لألتقطها وأمتلكها في راحتي.

يـا الله!! ترك لي الشريحة في ذات المكان الذي تسبَّبَ في شلل يده، كأنّه كان يطلب مني أن أتخذ القرار! فقط أتخذ القرار! تصرف ماكر من ذئب كبير.

ألتقط أنفاسي وأنحي تفكيري عنه جانباً ، وأركض بالشريحة إلى سيارتي، أدسُّها في "Apple mac" لأستعرض محتوياتها، ينبثق برنامج الـ "QuickTime" مُحتفياً بالمحتوى بين أحضان إطاره، ينتقي لقطة تغترف من الحزن وجَعاً ، أظهر فيها فتىً صغيراً لم أكمل عامي العاشر بعد، أجري متخبطًا على أرض المربط الخضراء الواسعة داخل مشهد متأرجح للكاميرا، ومن خلفي أمي تطاردني بينما صدى ضحكاتنا السعيدة يتردَّد عالياً، أنهار حينما أراها ، تغالبني أحزاني فتصرعني وأبكي ، أبكي حتى يلتقي سيل دموعي بانشراح ابتسامتي ، أظنُّ أننا خلقنا من الماء كي نتعلم البكاء ، لذلك نشعر بالحنين للمطر والبحر، فهما يهمسان بالشجن داخل قرارنا المكين.

تتـوالى اللقطات غـيرَ منتظمـة ولا مرتبـة ، فيثقل الألم ويتكاثـف الحـزن ، تتحول عضلة قلبي إلى إسـفنجة رهيفة، تشرب من عُصَارة الوجع دون أن تشـبع، إلى أن يأتيني الملف السـابع بمفاجأة غريبة، يظهر أبي في سرير موته ملتفًا بملابس ثقيلـة ، على اليمين منه يجلس الدكتور "عبد اللطيف" وعلى اليسـار يجلس الدكتور "جلال"! أعتدل وقد جذَبَ ما يحدث انتباهـي، إذن أبي يعرف الدكتور "عبـد اللطيف" عن قرب، أظن أن هذا يفسر الكثير، أرفع من درجة صوت الملف، وأبدأ في تَسَمُّع الحوار :

- أنا مش هشترك في الموضوع ده يا مصطفى.

- ده الحل الوحيد اللي قدامي يا جلال، عندك حل تاني؟

يتدخـل الدكتـور "عبد اللطيف" : وانـت ضامن رد فعل الولد يا مصطفى؟

- ابني مش مقدر قيمة الحياة وده الحل الوحيد قدامنا.

يعـترض "جلال": يا مصطفى نبيل ينتحر قبل كده انت ناسي ولا ايه؟ افرض عملها تاني؟

- اللي بيبقـى فاضله من الحيـاة أيام مسـتحيل ينتحر، بالعكس ده بينـدم على كل اللي لحظها ضيعها من عمره، أنا

حاسس الإحساس ده دلوقتي .

يتدخل "عبد اللطيف" مرة أخرى :

- ابنــك تفكيره غير تفكـيرك، نبيل عنده ضغوط نفســية كتــير، ولو خدعناه وقلنا له ان عنده سرطان وفاضله أيام مش هنضمــن أبدا رد فعله، ممكن يحس باليــأس ويعتزل الحياة أكتر، يعني الحل ده ممكن يجيب نتيجة عكسية.

- وممكن ينصلح حاله .

- أنا مش موافق يا مصطفى .

يعترض الدكتور "جلال" ضارباً براحتيه على ركبتيه ، ويقوم ليغادر الجلسة ، لكن "عبد اللطيف" يمسك بذراعه ليمنعه:

- استنى بس يا جلال..

- اســتنى ايه ده عايز يدمر الولد ، ثــم يُدير وجهَه ناحية أبي ويقول:

- شــوف يا مصطفى أنا مقدر حالتك الصحية والنفســية، وعــارف ان الولد فعلا محتاج يتغير، بس مش لازم يتغير على مزاجك انت، سيبه للحياة تعلمه.

- الولد لو متغيرش هيضيع كل اللي بنيته.

- أنا عندي حل وسط.

يقولهــا الدكتــور "عبد اللطيــف" كأنْ ذهنــه تفتّق عن فكرة لامعة، فينتبهان له: ســيب له وصية زي اختبار كده، لو منفذهاش يبقى مفيش قدامنا غير الحل ده.

- اللي بتقولوه ده عبث والله، أنا لا يمكن أشــارك في اللعبة دي.

يعترض وأشاهده يغادر، من تحت كاميرا المراقبة ، بينما أبي يهزُّ رأسه راضياً: أنا موافق على الحل ده، هسيب له وديعه في البنك لــو فتحها ونفذ اللي فيها يبقى ناوي يتغير، أما لو عاند ورفض، يبقى لازم يخوض التجربة القاسية دي.

- طيب وهنجيــب تحاليل طبية نقنعه بيهــا ازاي، افرض أخد التحاليل وسأل في مكان تاني.

- اكتب اسمه على تحاليل المرحومة يا عبد اللطيف.

يُومئ برأسِه فيبدو أنه اقتنع، وينتهى العرض، وتنتهي معه بقايــا ما في نبضي من حيــاة ، الطعنة هذه المرْة أعمق من أن أحتويها، خنجرُها يســافر في خــاصرتي إلى الحد الذي لا أملك أمامه إلاّ اشــتهاءَ الموت، كيف حملت الحياة بين رحمها بشراً مثل أبي؟ لم يدُرْ بخُلدي قط أنه يمكن أن يكذبَ عليّ في الموت،

ويُنسب لي تحاليل أمي، ولم يدرْ بخلدي أن الإنسانة الوحيدة التي استسلمت لحبها بكل جوارحي يمكن أن تطعنني بهذه القسوة.

أعود إلي منزلي أشلاءَ إنسان فتستقبلني "ريماس" بعناق دافئ لكني أبعدها ، أمسكها من كتفيها ، مخترقاً ببصري عينيها المندهشتين المبتسمتين ، وأواجهها بكل شيء :

- قبلتي على نفسك؟

- قبلت على نفسي ايه؟

- مش عارفه؟!

- في ايه يا حبيبي؟ بتتكلم ايه كده ؟

- قبلتي على نفسك تشاركي في مؤامرة ضد انسان مسالم، عمره ما أذاكِ في حاجه؟ انا عملت لك إيه علشان تتسببي انت وأبوكِ اني انتحر؟ إني أعيش في عذاب، وألم لشهور مستني فيها لحظة موتي.

تنظر لعينيّ غيرَ مصدقةٍ مًا أقول ، وَقْعُ المفاجأة عليها كان قاسياً، يبدو أنها نسيت أو كادت أن تتناسي كذبتها الكبيرة في غمرة حياتنا سوياً ، أنساها عشقنا ما سَعَتْ دائماً أن تخفيه، تسكت وتُحدِّق بي غيرَ قادرة علي التفوه بأي كلمة من شأنها

أن تهـدئ هذا الـبركان الثائرَ بداخلي ، تطبــق جفنيها كأنها تسـتدرُ بدموعها التي أخذت تنســاب على وجنتيها المغفرة مني عن كل العذاب الذي سـببته لي، ولكــن عيني تنكرها ، تظـل جامدة محدقة فيها ، حتى تفتح عينيها المغرورقة تقول فيما صدرها ينتهج: نبيل ممكن قبل ما تحكم عليا بأي شـــ تـسمعني ؟

أحَدْجُهـا بنظرة مــلام ، غيرَ مُبالٍ بتلك النظـرة الذليلة في عينيها، فتستطرد متوسلة :

- أرجوك بلاش النظرة اللي شـايفاها في عينيك، النظرة دي كفيلــة إنها تموتني. حبي ليك كان حقيقي مش مزيف يا نبيل، مشــاعري ليك كانت الحاجة الوحيدة الصادقة في كل الكذب اللي مريت به، أنا من أول يوم قابلتك فيه وأنا حســيت بشي، غريــب دخل قلبــي، متصورتش أبدا أنــه ممكن يكون حب، تخيلــت في الأول إنه أعجاب بيك كفنان أو مجرد ارتياح، لكن بعد كل مرة كنت بأقابلك وأشوفك كنت بتأكد ان اللي بحسة ليــك ده حب حقيقي، فكرت أتراجــع عن الكذبة ومكملش لكن ده كان هيكون الســبب في بعدي عنك، وأنا كنت بتمنى وجودي جنبــك في كل لحظة من حياتي، عشــان كده رضيت وقبلــت أشــترك في اللعبــة دي، لكن بيني وبــين نفسي كنت بحتقــر نفــي لما أتخيل أنك ممكــن تحبني وانت مش عارف

إني كذبت عليك .. فكرت كتير أعترفلك ,بالحقيقة من أول يوم لكن خفت .. خفت تبعد عني وتسيبني انا بعترف إني غلطت لكن علشان بحبك

وتقترب منّي قليلاً فتتحسس بأناملها خدّي وتهمِسُ: أرجوك سامحني وأنسى أي حاجة فاتت وخلينا نعيش من جديد.

أعترضُ قائلاً : أزاي أسامحك وانتِ كنتِ كل يوم بتشوفيني بتعذب أزاي أسامحك وانتي خلتيني افكر في الأنتحار لولا ان ربنا نجاني، أزاي هنسى كل الألم اللي عانيته بسببك، للأسف ياريماس الألم ده بقى محفور جوايا وكل أما أشوفك هفتكره.

تبكي بحُرقة، تُمسك بذراعي لكنني لا أتعاطف معها، أدفعها بعيداً وفي صدري تموج عذابات الأيام التي استعصى على إحساسي الشفاء منها .

- للأسف انا مش هعرف أبص في وشك تاني.

(يمكن أن نبقى)

نســـيرُ نحو القدر بأسرعَ ما يســير هو نحونا، لأنه كُتِبَ علينــا ولم نَكتُبْ عليــه، نندفع إلى نهاياتــه مثقلين بصحائفَ كتبها قلمُــه هو بإرادتنا نحن، وبداخلنــا طوفان يجرفنا نحو حتميّة المآلات وأرصفة الوصول.

أعود إلى المربط مكسورًا، فأذهب إلى حظيرة الخيول، أحمل ســطل الماء وأدفع باب بوكس قمــر لأدخله . أجده على حاله القديم، مُغبَرّاً وفي أركانه تتمدد شباك العناكب، لم يطأه حافر فــرس من بعده كما وعدني أبي ، يتراءى لي طيفه تحت خيوط الشــمس المتســللة من النافذة الصغيرة، كأنــه فرس مغزول من نور، ســاقه القصيرة ســليمة ومتوهجة أكثر من أخواتها، أملّس على ظهره فأشــاهد ما حول كفي يضيء، والامس فيضاً دافئاً شــديدَ النعومة، يميل بعنقه المُقَوّس الجميل ليشرب من السطل، فأضع خدّي على وميض صدرِه وأهمس:

- يا ترى يا قمر ممكن نتقابل تاني؟ ولا ده بيحصل لأرواح

البشر بس؟

يحرك رأسه المنير ناحيتي، فيطبق جفنيه ويفتحهما، يعدني أن نلتقي .

أصمُـت لفـترة طويلة دافئة الإحسـاس تنتهـي بأن أنزع السـلاح من جيبي، يتلاشى طيفُه الذهبيّ، كأنَّ السلاح أخافه، تلم الشـمس خيوطها كعروس ترفع ثوبَهـا عن تراب الأرض، وتغيم السـماء، كأنها تزفُّ الحياة إلى قدر الموت.

أجلس فوق مكعب التبن وأدفن رأسي بين كَفي، أحاول أن ألملِم أشـلاء أفكاري لأصل إلى قرار أخير، أبي يدير الحياة وهو على قيد الموت، بالجـبروت هذا الرجل، لم يترك لعنقي فرصة أن يمدَّ ليستنشـق الحرية ولو لحظة خارج سـياج سيطرته، لكـنْ ذكاءه خانه هـذه المرة، فأنا أمتاز عنـه بشيء لا يمكنه تعويضُه، أنا حيّ ولا زلتُ أملك القرار، لا أنكر أنَّ الحياة التي تسري في أوردتي شاحبة، وأنني أشعر بأفُولها لحظةً بعد أخرى، لكنها ما زالتْ تكفيني للفوز.

أقلِّب المسـدس في كَفِي وأتأمَّله ، كـم كانت حياتي مثلك تماماً يا صديقي، باردة وجافة ، أغرز ماسورته في جانب رأسي،

فوق أذني مباشرة. أقول لأبي كلمة واحدة أخيرة :

- خسرت.

أغمِضُ عينيّ ، أبتسم ، أضغط الزناد .



كسر مضاعف

أمير حسين

بين الحب والكراهية

تموت حياة ويعيش موت.









رقم الإيداع : 2747 / 2016 I.S.B.N : 978-977-426-188-6

15 شارع سوريا - المهندسين - ج.م.ع
هاتف: 33446727 02 002 فاكس: 33026637 02 002
E-mail:Rayatop@hotmail.com
WWW.DARALRAYA.COM